محمد أمير

أيام المماليك

"حكايات المذابح والعروش
من الصعلكة إلى كرسي الحكم"




ساحر الكتب



مقدمة

كثير منا على دراية بدولة المماليك التي هيمنت على الشرق الأوسط قرابة الثلاثمائة عام يحكمون ويتحاكمون، والكثير أيضًا على دراية بأعمالهم وإصلاحاتهم وجهادهم ضد المغول والصليبيين، فكما نعلم أن المماليك حتى العام ١٢٥٠م كانوا مجرّد عبيد مشترين يعرضون في الأسواق، وهو مصطلح أطلق في بادئ الأمر على عرق العبيد الأبيض الذين تم الإتيان بهم من أقصى الشمال والشرق الأوروبي وبلاد سمرقند وفرغانة وأشروسنة والشاش وخوارزم كأطفال يعرضون في أسواق النخاسة للاتجار بهم، وكان الخلفاء المتعاقبون على حكم الشام ومصر منذ الدولة العباسية يتباهون بكثرة شرائهم لهؤلاء العبيد ومن ثم تعليمهم ليضمنوا ولاءهم للسلطنة، وهم من السلالة التركية يتحدثون التركية والعربية.

كان الخليفة المعتصم هو أول من اعتمد على العنصر التركي في الجيش الإسلامي لقوة أبدانهم وقدرتهم على تحمّل أعباء الحرب.

يقال إنه كان دائمًا ما يرسل في شرائهم واقتنائهم ثم ضمّهم إلى الجيش، وقد صار في عداد جيشه الخاص وقت خلافة المأمون زهاء الثلاثة آلاف مملوكي.

ثم ما إن تولى الخلافة حتى اضطربت أحوال الخلافة العباسية على عهده بين اضطرابات من الجانب الفارسي والعربي، وخاف المأمون من إعطاء الأمان لكلا الفريقين أولًا للحد من النفوذ الفارسي الذي كان في ازدياد ملحوظ في الخلافة، وخوفًا من الغدر العربي حيث إن العربان قد اشتهروا بانقلاباتهم على الخلافات السابقة، فوكّل



المعتصم حمايته الخاصة لفرقة من المماليك بعد أن ازدادت أعدادهم قرابة الاثني عشر ألفًا من المحاربين.

وكانت تلك هي نقطة التحول الأولى في حياة المماليك، حيث إنهم بازدياد أعدادهم وتقليدهم مناصب عسكرية وقيادية حتى أضحت الخلافة العباسية تحت إمرتهم يتحكمون فيها كيفما شاءوا، حتى أنهم كانوا يعزلون خلفاء وينصّبون آخر، حتى أن بعض الخلفاء قد تم اغتيالهم سياسيًا على أيديهم إن كان يقف كالعلقم ضد مصالح المماليك في تلك الحقبة.

أما النقطة الأخرى في تحولهم كانت في العصر الطولوني حينما تولى أحمد بن طولون شئون الولاية المصرية والذي بدوره طمع في الانفصال بمصر عن الخلافة العباسية، وبما أن أحمد بن طولون تركي العرق، فقد رأى أن يحيط نفسه بجيش من المماليك الأتراك الأصل حتى يكونوا العون له في السيطرة على مقاليد الحكم في مصر.

كان هذا الجيش مكوّن من أربعة وعشرين ألف جندي مملوكي تركي العرق، وقد تمت له السيطرة على مقاليد الحكم في مصر وبعدها الشام بنفس الطريقة حتى ازدادت أعداد جيشه أضعافًا، وتم له الاستقلال عن الخلافة العباسية في بغداد.

وبعد سقوط الدولة الطولونية، قامت الدولة الإخشيدي على نفس النهج الطولوني، فآثر الخليفة الإخشيدي أن يستعين بالمماليك التركية للسيطرة على الحكم هو الآخر، حتى بلغت قوات محمد بن طغج الإخشيد المؤسس قرابة الثمانية آلاف من جنوده الخاصين بحمايته، وقيل إنه كان ينام في حراسة ألف من المماليك.

وحين استولت الدولة الفاطمية على القاهرة ومن بعدها الشام،

اعتمد الخلفاء الفاطميون على عدة عناصر مملوكية تركية حيث استخدم الخليفة الفاطمي أبو منصور نزار العزيز بالله بعض المماليك في الوظائف القيادية في الدولة.

حيث إنه عيّن مملوكه «منجوتكين» شئون الجيش كما ولاه الشام كلها، تراجع نفوذهم في عهد الحاكم بأمر الله لحساب الزنج، ولكنهم رجعوا ثانية في عهد الخليفة أبو الحسن علي الظاهر لاعزاز دين الله حيث إنه ولّى المملوك «منصور أنوشتكين» قيادة الجيش الفاطمي بأسره، وكان الفاطميون هم أول من وضعوا منهاجًا لتربية وتقويم المماليك في مصر منذ النشأة، والتي عمل عليها النشء منذ طفولتهم حتى رشدهم.

أما في عهد الأيوبيين بعد سقوط الدولة الفاطمية فكان كل خليفة أو سلطان من الأيوبيين يتفاخر بعصبة من المماليك حوله يستخدمهم لحمايته والولاء له، فقد كانوا يضمنون ولاءهم بتعليمهم منذ الصغر ثم العمل على تقويمهم وتدريبهم على الفروسية بعد إلحاقهم بالجيش.

ومع الوقت، تصاعد النفوذ المملوكي رويدًا رويدًا حتى تقلّدوا أعلى المناصب في الدولة، وكانت لهم الكلمة الآمرة والناهية في قصر السلطان والمتحكمين في جيشه وراياته، خاصة مع اكتساب لخبرات عسكرية وقت الحرب ضد الصليبيين على مدار الأعوام وبعد ضعف السلاطين المتعاقبين على عرش الخلافة واشتغالهم بأمور القصر، كانت الكلمة الأولى والأخيرة دائمًا هي للمماليك.

ثم كانت نقطة التحوّل في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وزوجته شجر الدر، حينما مات وكان الأيوبيون في حربهم مع الصليبيين، وبالرغم من بلاء المماليك الجيد أمام صد توسع الصليبيين في الشرق الأوسط والشام إلا أن خبر وفاة نجم الدين أيوب كان ليكون



بمثابة الضربة القاضية للعرب، لذا كتمت شجر الدر خبر وفاته عن الكل حتى لا تتصاعد الأمور، ومن ثم أرسلت في طلب ابنه توران شاة الذي كان وقتها يعيش في الجزيرة الفراتية مع أعوانه من المماليك، وحين حضر توران شاة إلى القاهرة لتولي أمور السلطنة الأيوبية، عمل على تصعيد شئون أمرائه من المماليك وهو الأمر الذي قابله المماليك بالرفض.

كان توران شاه مستهترًا، شخصًا عابثًا لا يعوزه شيئًا، يحب نفسه أكثر من أي شيء آخر، وكان لا يأمن لأحد مطلقًا.

فبالرغم من انتصار وبزوغ نجم المماليك البحرية «نسبة إلى جزيرة الروضة التي سكنوها» في الحروب والأمور الداخلية للبلاد، إلا أنه قد خاف على نفسه من بطشهم وسيطرتهم على مقاليد الحك، فقرر أن يبعد المماليك من سدة الجيوش وأماكن نفوذهم، وهو ما قوبل بالرفض المطلق من قبل المماليك.

وحين اعترض المماليك على قرارات توران شاه الطائشة، ازداد هو في تهديدهم ووعيدهم، وجرّدهم من وظائفهم الحكومية واستبدلهم بمماليكه الخاصين، كما أنه تنكّر لشجرة الدر التي حافظت له على عرشه، واتهمها بسرقة أموال أبيه وإخفائها.

ثم أنه شرع في تهديدها بالسجن أو القتل، وهذا ما دفع شجرة الدر إلى العودة إلى المماليك البحرية وشكواه إليهم حيث إنهم كانوا يكنون الاحترام لها كونها زوجة أستاذهم المتوفى.

ومما زاد من الضغينة في الأجواء تجاه توران شاة، ما كان ينتويه توران في المماليك البحرية وشجرة الدر، فقد تراءى للكل نواياه في التخلّص من المماليك البحرية بوعظ من مماليكه حتى تتفرّغ لهم أذرع الدولة فتتم لهم أركانها، فيحكمونها بكاملها، وكذا رضخ توران شاة



لمشورة مماليكه، مما حتّم على المماليك البحرية بقيادة بيبرس البندقداري وفارس الدين أقطاي وشجر الدر وقلاوون الصالحي بأن ينقلبون هم على حكم توران شاة وأن يقوموا باغتياله.

وبالفعل، في الثاني من مايو لعام ١٢٥٠م كان اغتيال توران شاة الأشهر، حيث إنه كان في فارسكور للاحتفال بأحد انتصاراته. فاقتحم بيبرس البندقداري خيمته وضربه بسيفه فقطع بعضًا من أصابعه، فحاول توران الهرب إلى كشك خشبي ليحتمي به فأشعل المماليك النيران في الكشك، فهرب والنار ممسكة في ملابسه ليقفز في النيل فضربوه بالسهام من كل جهة، فحاول أن يلتمس الرحمة بلا جدوى حتى قفز عليه بيبرس بالسيف فطعنه، وكانت موتة توران شاة جريحًا غارقًا محترقًا، وسقطت دولة الأيوبيين يومها رسميًا وقامت دولة من الدول الأكثر قوة في تاريخ الشرق الأوسط وتحديدًا مصر والشام، وهي دولة المماليك البحرية.

كان للمماليك صولات وجولات في الحروب والحكم، يومًا ما كانوا امبراطورية من الفرسان لا تقهر، لا يهابها شيء، تتحكم في مساحة أرض شاسعة وتحارب الغرب والشرق، تنتصر على المغول تارة والصليبيين تارة أخرى، ولكن مثلها مثل أي دولة قامت بقوة فقد سقطت بقوة.

ولكن ما الذي أصاب عرق المماليك الذي كان سائدًا في الحكم في تلك المنطقة بالذات؟

سقطت الدولة وانتهى عرق المماليك من الوجود عن طريق المرور بين أكثر من نكبة، كل نكبة تأخذ من المماليك قطعة، تضعفهم أكثر، تحط من قدرهم أكثر، حتى كانت الإبادة الأخيرة في العصر الحديث.

هنا، سنناقش نكبات المماليك نكبة وراء الأخرى، نحاول بقدر



الإمكان ذكر المصائب التي كانت هي العامل المساعد على فناء المماليك من الوجود والذين كانوا يومًا ما هو العرق المسيطر على الحكم في أكثر المناطق ثراء وغنى.

تنقسم المماليك إلى ثلاث فترات مهمة كما رسمها العلماء والمؤرخون.

المماليك البحرية، المماليك البرجية والمماليك البايات

المماليك البحرية وهم الأوائل الذين حكموا منذ ولاية السلطان عز الدين أيبك العام ١٢٥٠م وحتى ولاية السلطان الصالح زين الدين حاجي حتى سقوطه العام ١٣٨٢م، وهم من أصل مغولي وتركي.

أما المماليك البرجية هم مماليك الشركس والذين ينتسبون لقبيلة برج الشركسية، ويقال إنه تمت تسميتهم بالبرجية نسبة لسكنهم أبراج قلعة الجبل.

حكموا منذ بدء ولاية السلطان برقوق عام ١٣٨١م حتى إعدام الأشرف طومان باي العام ١٥١٧م، وعرفت تلك الفترة بفترة التقلبات والانقلابات والكرسي لمن غلب، وسقطت المماليك في أيدي العثمانيين في حقبتهم، وكانت النهاية الأولى للوجود المملوكي والسقطة النهائية لسلطنة المماليك.

أما المماليك البايات وهم صغار أمراء المماليك الذين حكموا قطائع وأقاليم مصر منذ فتح السلطان العثماني سليم خان لمصر العام ١٥١٧م حتى حادثة مذبحة القلعة في عهد محمد علي مؤسس مصر الحديثة لعام ١٨٠٧م.

كانت دولة عظيمة، ولكن النكبات كانت أكثر من المحتمل.

الألقاب المملوكية ومعانيها



تعددت الألقاب المملوكية حسب درجات الحائزين عليها، حيث إنها في الأصل أسماء تركية وفارسية نقلها المماليك الأتراك والمماليك البحرية عن طريق لغاتهم الأم، فكما نعلم أن المماليك هم شرق أوروبيي الأصل وقوقاز وأتراك، وقد اختلفت المسمّيات والألقاب ما بين شخص وآخر إلا أنه الثابت في المناصب الكبيرة بعض الألقاب المشهورة والتي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بمهنة أصحابها، وكانت الألقاب تعد من الأشياء الثمينة التي يمنّ بها سلاطين المماليك على الأمراء والوزراء وحتى التجار، حيث إن لقب جديد يعني مصدر دخل ونفوذ جديدة وكبيرة، ومن تلك الألقاب الآتي.

دار: كلمة فارسية تعني ماسك، وتدخل في كثير من أسماء الوظائف المملوكية مثل «الدوادار» و«الركاب دار» و«الخازندار» و«البرددار».

خاناه: كلمة فارسية تعني بيت. وتدخل في كثير من أسماء الحواصل مثل «الطشت خاناه» و«الطبلخاناه».

شاد: صاحب وظيفة تسمى الشد. وتعنى متخصص في أو متكلم في، وتضاف إلى مجالات متعددة مثل شاد العمائر وشاد الدواوين.

أجناد الحلقة: جنود من الدرجة الثانية، كان عددهم غفيرًا، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم، بلغ عددهم في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون أحد عشر ألفًا، ربما سموا بذلك لأنهم كانوا يحيطون بالسلطان أو بالأعداء، تألفوا من القرانيص والسيفية والمتعممين والعربان والعامة.

أمير: مقدم الفرسان، ولكل أمير طبقة تبعًا لعدد فرسانه.

أمير آخور: رئيس الإصطبل السلطاني والمشرف على خيله.



أمير خمسة: أمير تحت إمرته خمسة فرسان وهو أمير من الطبقة الرابعة وهي أقل درجات الإمارة وتوازي درجة كبار الأجناد.

أمير عشرة: أمير تحت إمرته عشرة فرسان وأحيانًا عشرين وهو أمير من الطبقة الثالثة، منهم يكون صغار الولاة وأرباب الوظائف.

أمير طبلخاناه: أي أمير تدق الطبول والأبواق على أبوابه، وهو أمير تحت إمرته غالبًا أربعين فارسًا ويعد أميرًا من الطبقة الثانية، منهم يكون أرباب الوظائف وكبار الولاة.

أمير مئين: مقدمو الألوف وهو أمير تحت إمرته مائة أو ألف فارس ممن دونه من الأمراء هو أمير من الطبقة الأولى وهي أعلى مراتب الإمارة، منهم يكون النواب وأكابر أرباب الوظائف.

أمير مجلس: مشرف وحارس على كرسي وسرير السلطان.

أمير علم: أمير من أمراء العشرات كان يشرف على الطبلخاناه.

أمير سلاح: حامل سلاح السلطان، وهو مقدم السلاح داريه من المماليك السلطانية، والمشرف على السلاح خاناه السلطانية.

أمير شكار: مشرف على الجوارح السلطانية من الطيور والصيود وقد كان من أمراء العشرات.

أمراء العربان: رؤساء بيوت القبائل من أصول عربية التي هاجرت إلى مصر وأقامت بها، ومنها بنو شاد وبنوعجيل وكانوا يسكنون بالقصر الخراب بقوص، وأولاد بني جحيش وكانت منازلهم في دروة سرمام، وأولاد زعازع، وأولاد قريش، وبنو عمر بجرجا، وأولاد غريب بديروط وغيرها، من أشهر أمراء العربان خثعم بن نمي بالوجه البحري.

أتابك: تعني الأب الأمير وهو أمير الجيوش أي القائد العام للجيش. وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد نائب السلطنة، ويدعى أيضًا



أتابك العساكر لم تكن له صلاحيات أمر ونهي.

استدار: كان يشرف على كل بيوت السلطان من مطابخ وحاشية وجاشنكرية ونفقات وكسوة.

استدار الصحبة: المشرف على المطبخ السلطاني والطعام، وهو في العادة أمير عشرة.

أهوار: جمع هُري، مخازن للغلال والأتبان الخاصة بالسلطان احتياطًا للطوارئ الاقتصادية وكانت لا تفتح إلا عند الضرورة.

سكرجة: صحن صغير يوضع على المائدة، وفيه فاتحات الشهية من الطعام.

الصاحب: من ألقاب الوزراء، و«الصاحبي» نسبة إليه للمبالغة.

الكافل: من ألقاب نائب السلطنة.

إقطاع: دخل الأمير أو المملوك من خراج أرض أو بلدة.

أعلام: عدة رايات، منها راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب، عليها ألقاب الملك واسمه وتسمى العصابة، وراية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش، ورايات صفر صغار تسمى السناجق.

بابا: اسم كان يطلق على غلمان الطشت خاناه وكانت من ضمن وظائفه الإشراف على قباض اللحم.

البحرية: طائفة من الجنود يبيتون بالقلعة وحول دهاليز السلطان في السفر لحراسة السلطان. أول من رتبهم وسماهم بهذا الاسم السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب.

بنكام الرمل: الساعة الرملية.

بيمارستان: أيضًا مارستان، مستشفى وكان الطب يدرس به كذلك

بريد جوي: بريد يرسل عن طريق الحمام الزاجل، نظمه وتوسع

في استخدامه السلطان الظاهر بيبرس.

بيت المال: الخزانة العامة.

تجار الكارمية: فئة من التجار كانت بيدها تجارة البهار الوارد من الهند.

التخت: عرش السلطان.

جامكية: أجر المملوك أو منحته الشهرية، كانت تعطى من غلة الوقف.

جاشنكير: متذوق مأكل ومشرب السلطان أو الأمير للتأكد من خلوه من السم.

الجاليش: راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر.

جاويش: منصب عسكري، أصل اللفظ تركي أو فارسي أو مغولي.

الجلبان: إحدى فرق الجيش المملوكي وكان يشتريهم السلطان لنفسه.

جنائب: جمع جنب، الخيول التي كانت تتبع السلطان في الحروب لاحتمال الحاجة إليها.

حافظ الأسرار: من ألقاب كاتب السر.

برددار: وتعني حرفيًا «صاحب الستارة» أي الحاجب، وهو المكلف بفتح الستارة أو غلقها على باب الأمير أو الوزير.

جمدار: الذي يلبس السلطان ثيابه.

حراقة: نوع من السفن الحربية الخفيفة كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية.

خان: مخزن تجاري يبيع نوعًا معينًا من البضائع.

خادم الحرمين الشريفين: من ألقاب السلطان.

خازندار: مشرف على خزائن أموال السلطان من نقد وقماش وغير ذلك.

خاصكية: أقرب المماليك السلطانية على السلطان، وهم الحرس



الشخصي للسلطان، وكانوا يسوقون المحمل الشريف.

خليل أمير المؤمنين: من ألقاب أولاد السلطان.

خند: زوجة السلطان.

خشداشية: مماليك ينتمون إلى نفس الأمير أو السلطان.

خواجا أو خواجة: لفظ فارسي دخيل في التركية ورسم في اللغتين بهاء في آخره، وهو لقب تكريم عندهم يرادف الأغا والأفندي والسيد، ويطلق أيضًا على الأساتذة المعلمين والمشايخ المعممين، ولقب به كبار التجار منذ القرن السابع الهجري، وظل مستعملًا بمصر حتى القرن الثالث عشر الهجري. و«الخواجكي» نسبة إليه للمبالغة.

العصابة: راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب، عليها ألقاب السلطان واسمه.

علامة سلطانية: رسم توقيع السلطان الذي يضعه على مستندات السلطنة ورسائله.

الغاشية: غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب، كان يحملها «الركاب داريه» بين يدي السلطان في المواكب.

الملاذي: من ألقاب الوزراء.

النفير العام: حالة الطوارئ العامة في البلاد وتعلن عند نشوب حرب أو حدوث هجوم خارجي.

رأس البلغاء: من ألقاب أكابر كتاب الإنشاء ككاتب السر.

رأس نوبة: المشرف على المماليك السلطانية وجرت العادة أن يقوم بالوظيفة أربعة أمراء: مقدم ألف وثلاثة طبلخاناه ممن تحت إمرة كل منهم على الأقل أربعين فارسًا.

رختوان: جمعها رختوانية، خادم منوط بحفظ الأثاث والعناية به في قصر السلطان، كان من الرختوانية من يخدم في الطشت خاناه.



ركاب دار: حامل الغاشية بين يدي السلطان في المواكب وقت الاحتفالات.

زردخاناه: بيت الزرد لما فيها من دروع وزرد، كان يحفظ فيها السلاح وهي أيضًا السلاح خاناه.

دبندار: ضارب الطبول.

الدهليز: خيمة السلطان التي كان يقيم بها وقت السفر والمعارك، كانت مركز قيادة الجيش في المعارك.

دوادار أو داودار: حامل دواة السلطان، من وظائفه إبلاغ الرسائل عن السلطان.

فندق: مكان للإقامة نظير أجر، من أشهر فنادق القاهرة في العصر المملوكي: دار التفاح، وفندق بلال، وفندق الصالح.

قابض اللحم: كانت وظيفته توزيع اللحم على المماليك السلطانية.

كُشاف: يشرف على الأراضي والجسور ويسمى أيضًا كاشف التراب وكاشف الجسور، وهو أيضًا جابي الضرائب.

كوسات: صنوجات من نحاس، كانت يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص، كان يدق بها مرتين في القلعة في كل ليلة ويدار بها في جوانبها مرة بعد العشاء، ومرة قبل الفجر، وكان أيضًا يدار بها حول خيام السلطان في سفره.

لسان السلطنة: من ألقاب كاتب السر.

مقدم المماليك: المشرف على المماليك السلطانية، عادة يكون أمير طبلخاناه وله نائب أمير عشرة.

مماليك كتابية: مماليك تحت التدريب يعيشون في الطباق.

مماليك سلطانية: جنود من الطبقة الأولى، أشد مماليك السلطان قربًا، وأعظم الأجناد شأنًا، وأرفعهم قدرًا، وأوفرهم إقطاعًا، كانوا فرقة واحدة مؤلفة من عدة فئات هي: الخاصكية، والأجلاب، والقرانيص، والسيفية.



المقصورة السلطانية: مكان السلطان للصلاة بالجامع مع خاصكيته. كانت توجد بجامع قلعة الجبل قرب المنبر.

مُنفر: ضارب البوق.

مدورة السلطان: خيمة السلطان التي كان يقيم بها أثناء أسفاره.

المظلة (السلطانية): وتسمى «الچتر»، قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب؛ على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب، كانت تحمل على رأس السلطان في العيدين.

مرقدار: خادم بالمطابخ السلطانية.

مهمندار: مستقبل الرسل الواردين وشيوخ العربان وغيرهم.

مهتار: مشرف على بيت من البيوت السلطانية كبير على طائفة من غلمان الحواصل كالطشت خاناه والفراش خاناه، وكان يلقب بالحاج وحتى إن لم يكن قد حج البيت.

نائب السلطنة: نائب السلطان المباشر المقيم بالقاهرة، يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم التقاليد والتواقيع والمناشير، ويستخدم الجند من غير مشاورة السلطان، ويحمل لقب كافل الممالك الشريفة الإسلامية الأمير الأمري تميزًا له عن نواب السلطان في توابع السلطنة بالشام وغيرها.

نائب الإسكندرية: نائب عن السلطان بالإسكندرية وكان بها كرسي سلطنة، وهو من الأمراء المقدمين يركب في المواكب ومعه أجناد الحلقة.

نائب الوجه القبلي: أعلى من نائب الوجه البحري. مقر نيابته كانت في أسيوط، ويحكم على جميع بلاد الوجه القبلي.

نائب الوجه البحري: من الأمراء المقدمين في رتبة مقدم العسكر بغزة، مقر نيابته كانت في دمنهور.



ناظر البيمارستان: يشرف على البيمارستان المنصوري (المستشفى)، وكانت مرتبته عالية، عادة من أكابر أمراء مصر

نقيب الجيوش: المشرف على تزيين الجنود في عروضهم ومعه يمشي النقباء، وهو الذي يحضر الأمير أو الجندي إلى السلطان أو النائب أو الحاجب في حالة طلبه.

السناجق: رايات صفر صغار.

شاد الدواوين: مساعد الوزير والمشرف على استخلاص الأموال. عادة يكون أمير عشرة.

شاد العمائر: المشرف على العمائر السلطانية من قصور ومنازل وأسوار وغيرها مما يطلب السلطان، عادة يكون أمير عشرة.

شاد الشراب خاناه: المشرف على الشراب خاناه السلطانية وما بها من مشروبات وفواكه.

شعار السلطنة: تنظيم معين لموكب السلطان كسير مماليكه وأمرائه معه ورفع رايات وسناجق سلطانية وما نحو ذلك.

طبلخاناه: بيت الطبل، مخزن الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات. كان يشرف عليها أمير من أمراء العشرات يعرف بأمير علم، طبول متعددة معها أبواق وزمر كانت تدق كل ليلة في قلعة الجبل بعد صلاة المغرب، وتصحب في أسفار السلطان والحروب.

قلعة الجبل: محل إقامة السلطان وكانت فوق جبل المقطم بالقاهرة.

قرانصة: مماليك تحولوا إلى خدمة أمير آخر أو سلطان جديد.

طباق: محل إقامة المماليك المستجدين بقلعة الجبل.

الطشت خاناه: بيت الطشت. فيها يكون الطشت الذي تغسل فيه الأيدي والطشت الذي يغسل فيه القماش، وفيها يكون ملبس السلطان ونعل البيت ومقاعده والسجادات التي يصلي عليها.



والي القاهرة: يحكم في القاهرة وضواحيها، وهو أكبر ولاة مصر. ويدعى أيضًا باسم والي الشرطة ووالي الحرب، عادة أمير طبلخاناه.

والي الفسطاط: يحكم في مصر (المدينة)، عادة أمير عشرة.

والي القرافة: يحكم في القرافة، وهي مدافن القاهرة والفسطاط بمراجعة والي مصر(المدينة) عادة أمير عشرة، في فترة لاحقة أضيفت القرافة إلى مصر (المدينة) وصارت ولاية واحدة.

والي القلعة: يشرف على أكبر أبواب قلعة الجبل بالقاهرة (باب المدرج) أمير طبلخاناه.

والي باب القلة: يشرف على باب القلة (كانت هناك قلة بناها الظاهر بيبرس وهدمها المنصور قلاوون).

وزير: من أجل أرباب الدولة وأرفعهم رتبة، ولكن اختصاصاته لا تتجاوز الأمور المالية وبعض الأمور الإدارية، أبطلت الوزارة في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وصار يقوم بعمل الوزير ناظر المال، وشاد الدواوين، وناظر الخاص.

الجبروت: أساليب التعذيب



سجن القلعة

حين صعد نجم المماليك الشراكسة في مصر، وعلت نفوذهم، ازدادت المخاوف على تلك النفوذ من الضياع، وقام كل سلطان أو أمير من المماليك بالقيام بحماية عرشه بطريق مستوي وآخر ملتوي، وتعددت الطرق التي بها قد حاولوا بسط نفوذهم أكثر فأكثر في شتّى أنحاء السلطنة المملوكية، وكانت الوسيلة الأكثر شيوعًا للحفاظ على مملكتهم هي التخلص من الأعداء بالاغتيال ثم الإعدام.

تعددت الوسائل التي استخدمها المماليك الأتراك في الإعدام ما بين وسيلة وأخرى، وكانوا جميعًا دمويين خالين من الرحمة، وقد اختلفت الوسيلة نسبة إلى الضحية نفسها والجريمة التي أدت إلى الإعدام نفسه، فتارة حكم الإعدام يكون سريعًا رحيمًا، وتارة هو عذاب شديد قبل الموت يتمنّى فيه المقتول أن يموت سريعًا.

حتى في ظل حكم السلاطين الذين امتازوا بالورع والتدين، كان الإعدام والاغتيال السياسي هو خير وسيلة للدفاع عن النفوذ والسلطة، وخير حفاظ على التوازن التام بين الحاكم والمحكوم، وأيضًا الوسيلة التي أخافوا بها الأعداء.



ومع صعود المماليك المستمر إلى سدّة الحكم، ازدادت طرق القتل بشاعة وتفننًا، وفيما يلي بعض الطرق المشهورة للقتل في زمن المماليك.

العصر:

وهي من طرق التعذيب الصعبة، وكان يتم خلالها عصر أعضاء الإنسان بالحبال وغيرها من أجل إجباره على الاعتراف، وغالبًا يطلب من الضحية الإخبار عن الأموال المخبأة، ومن الأمثلة التي ذكرها ابن إياس للمعصورين:

ففي سنة ٦٨٩هـ، وبأمر السلطان خليل بن قلاوون قبض قائد اسمه الشجاعي على حاشية الأمير طرنطاي، وقبض على نسائه وسراريه، وأحضر لهم المعاصير، فعصرهم، وقررهم على الأموال والذخائر، وبعد أربع سنوات تم قتل الشجاعي، وطيف برأسه في شوارع مصر والقاهرة على رمح، وكان الناس يعطون لحاملي الرمح أموالا مقابل أن يدخلوا بالرأس لبيوتهم، وما زالوا يصفعونها بالقباقيب والنعال، وربما كانوا يبولون عليها، واستمر الأمر كذلك لثلاثة أيام.

وفي سنة ٨٠٠هـ اشتد غضب السلطان على ابن الطبلاوي، فأمر يلغبا الأحمدي بأن يعاقبه، فنزل به إلى بيته، وعاقبه وعصره بالمعاصير في أكعابه، وسقاه الجير بالملح، وضربه بالكسارات.

وفي سنة ٩٠٥هـ قبض السلطان جان بلاط على الطواشي يسأله عن مكان السلطان السابق الظاهر قانصوه الذي كان مختفيًا، فأقر أن زوجته تعرف طريقه، فبعث إليها السلطان الأمير طراباي، فسألها عنه، فلم تقر بشيء، فأحضر إليها المعاصير، وعصرها في رجليها، فلم تقر بشيء.

في سنة ٩١٠هـ عاقب السلطان قانصوه بدر الدين بن مزهر، وعصره في أكعابه ووركه، ودق القصب في أصابعه، وأحرقها بالنار



حتى وقعت عقد أصابعه، ثم نوعوا له أنواع العذاب، فأخذوا له كماشة حديد، وأحموها بالنار، واختطفوا بها أبزازه، وأطعموها له، ثم أخذوا له حبل قنب، ولووه على أصداغه حتى نفرت عيناه من وجهه، وسالت على خديه حتى توفي تحت العقوبة.

وفي أيام السلطان قانصوه الغوري قبض على شموال اليهودي الصيرفي، وعاقبه، وعصره هو وزوجته، واستخرج منه فوق الخمسمائة ألف دينار، واستمر يعاقبهما حتى ماتا تحت العقوبة.

وفي سنة ٩٢١هـ عاقب الوالي قائدًا يدعى جاني بيك، وطالبه بمال، فقال: (ما بقي معي شيء غير روحي، فخذوها)، فضربوه كسارات على ركبه، وقيل عصروه في أصداغه حتى أشرف على الموت.

التعرية:

وهي طريقة كانت تستخدم لإذلال الضحية عبر تعريته، وخلع عمامته، وكان في ذلك أبلغ إذلال له.

ففي سنة ٩١٧هـ تغير خاطر السلطان قانصوه على القاضي أبي البقاء ناظر الإسطبل، فوضعه في الحديد، وعراه من أثوابه، وكشف رأسه، وكان ذلك في قوة البرد، ونزل من القلعة، وهو ماشي عريان مكشوف الرأس في الحديد، وحلف السلطان بحياة رأسه أنه لا يلبس أثوابه ولا عمامته حتى يغلق ما قرره عليه من أموال، ورسم للوالي بأن يقعده على البلاط من غير فرش.

التجريس والتشهير

وهي طريقة لفضح الضحية عبر إركابه على حمار، والتجول به في الشوارع، والمناداة عليه بما فعل ليكون عبرة لغيره.



ففي سنة ٩١٠هـ نودي في القاهرة من قبل السلطان بألا يعمل عزاء بطارات، ولا نائحة تنوح على ميت ثم غمز على نائحة عملت عزاء بطارات، فجرسها بركات بن موسى على حمار، والطارات معلقة في عنقها، ووجهها ملطخ بالسواد.

التعليق:

وهي طريقة للتعذيب حيث يعلق الضحية منكوسًا.

ففي سنة ٧٩٢هـ غضب السلطان الظاهر برقوق على الصاحب فخر الدين بن مكانس، وضربه علقة قوية ثم علقه من رجله بسرياق، فأقام وهو منكوس على رأسه نصف نهار ثم أن بعض الأمراء شفع فيه، فأنزلوه.

الضرب:

وهي الطريقة المعهودة في التعذيب منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا، ولكن كان للمماليك تفنن خاص به.

ففي سنة ٨٧٤هـ قبض السلطان قايتباي على زين الدين الأستادار، وأحضره بين يديه، ووبخه بالكلام ثم أمر بضربه بين يديه، فضرب ضربًا مبرحًا حتى كاد أن يهلك ثم سجنه بالبرج الذي بالقلعة، وصار يحضره بين يديه كل يوم، ويضربه بأشد الضرب، فمات وهو في البرج، فلما أعلموا السلطان بذلك لم يصدق بموته، وأمر بإحضاره بين يديه وهو ميت، فكشف عن وجهه، ورفسه برجله

وفي سنة ٨٨٢هـ تغير خاطر السلطان قايتباي على برهان الدين النابلسي وكيل بيت مال المسلمين، فقبض عليه، وسلمه للأمير يشبك يعاقبه، واستخلص منه جملة أموال لها صورة، وآخر الأمر مات تحت العقوبة شر موتة، وقد أذاقه أنواع العذاب، وتفنن في تعذيبه تفننًا زائدًا، فقيل إنه ضربه عدة مرات نحوًا من ألفين وستمائة عصا، وقلع



أضراسه، ودقها في رأسه.

في شعبان ٩٠٩هـ قبض قاضي القضاة على محمد بن يوسف الذي كان ناظر الأوقاف، فضربه ضربًا مبرحًا، وأشهره في القاهرة على حمار، وهو عريان مكشوف الرأس لأمر أوجب ذلك.

وفي سنة ٩١٦هـ عرض السلطان قانصوه معين الدين بن شمس الذي تغير خاطره عليه، فضربه بالمقارع بين يديه نحوًا من مائة (شبيب) حتى أشرف على الموت.

وفي سنة ٩٢٢هـ قبض على شخص أعجمي كان يصنع السنبوسك عند قناطر السباع، فوجدوه قد عمد إلى كلب أسود سمين، فذبحه، وسلخه، وعمل منه السنبوسك، فلما قبضوا عليه أحضروه بين يدي المحتسب، فضرب الأعجمي بالمقارع، وأشهره في القاهرة، والكلب معلق في رقبته، فطافوا به في المدينة ثم سجنوه في المقشرة

التسمير:

وهي طريقة تشبه التجريس، ولكن كان الضحية يسمر فيها على جمل بالمسامير، ويطاف به في الشوارع.

ففي سنة ٨٨٥هـ تغير خاطر السلطان على القاضي تاج الدين بن المقسى ناظر الخاصكان، فرسم بتسميره، فسمر على جمل، وطيف به في القاهرة، وتوجهوا به إلى قنطرة الحاجب ليوسطوه هناك، فلما وصل إلى هناك وقعت فيه شفاعة، فعادوا به، وقد أركبوه على فرس، وفرح الناس بسلامته.

الخنق:

وكان الخنق من الطرق المفضلة وقتئذ في الإعدام السري لأنه لا يترك دمًا، ويمكن للفاعل الادعاء بأن الضحية قضت نحبها بصورة طبيعية.



وبالخنق تم قتل أول سلاطين الدولة المملوكية عز الدين أيبك سنة ٦٥٤هـ حيث كانت زوجته شجر الدر قد أضمرت له السوء، فندبت له خمسة من الخدام الروم، وقالت لهم: (إذا دخل إلى الحمام، فاقتلوه)، فلما طلع إلى القلعة اصطلح مع شجر الدر، وتراضيا ثم دخل إلى الحمام، فلما صار هو وشجر الدر دخل عليه أولئك الخدام، وبأيديهم السيوف، فقام أيبك، وقبل شجر الدر، واستغاث بها، فقالت للخدام: (اتركوه)، فأغلظ عليها بعض الخدام في القول، وقال لها: (إن تركناه حيا فلا يبقى عليك ولا علينا)، فقتلوه في الحمام خنقًا، وقيل ربطوا محاشمة بوتر، وجذبوه حتى مات، فلما مات حملوه، وأخرجوه من الحمام، وأشاعوا أنه قد أغمي عليه في الحمام.

وفي سنة ٧٧٨هـ قام مملوك بخنق السلطان المملوكي بوتر حتى مات، ثم وضعه في قفة، وكسر ظهره، وأرسله تحت الليل على حمار، ورماه في بئر.

الصفع بالقباقيب:

وهي طريقة إعدام غريبة لم تحدث إلا مرة واحدة مع شجرة الدر كما هو مشهور.

فقد قبض على ابن أيبك على شجر الدر قاتلة أبيه سنة ٦٥٤هـ، وسلمها إلى أمه، فأمرت جواريها أن يقتلنها بالقباقيب والنعال، فضربنها حتى ماتت، ثم سحبوها من رجلها، ورموها من فوق السور إلى خندق، وهي عريانة، فأقامت وهي مرمية في الخندق ثلاثة أيام.

التعليق بالكلاليب:

وهي طريقة الصلب المشهورة، وكانت تستخدم مع المجرمين.

في سنة ٩١٢هـ قتلت جارية سوداء ستها وابن ستها وأخا ستها، فلما



عرضت على السلطان قانصوه رسم بقطع يدها، وشهرت في القاهرة ثم كلبت، وعلقت عند خوخة المغازليين في مكان قتلت فيه ستها.

وفي سنة ٩٢٢هـ دخل شخص من التركمان على السلطان طومان باي في خيمته، فشكوا به، فلما مسوا صدره وجدوا له ثديين طويلين، فإذا بذلك الشخص امرأة من نساء التراكمة كانت تحمل خنجرًا كبيرًا تحت ثيابها، فضربها المماليك بالسيوف، فلما قتلوها رسم السلطان بأن يعلقوها على باب النصر، فأتوا بها وهي عريانة، واستمرت معلقة هناك يومين عريانة، وعورتها مكشوفة بين الناس ثم دفنت.

التوسيط:

وهي أشهر طرق الإعدام في العصر المملوكي، وأكثرها استخدامًا على امتداد ذلك العصر، وكان يتم خلالها شطر الضحية بالسيف إلى جزأين بالعرض من منتصف الجسم.

ففي سنة ٦٩٣هـ: تولى الأمير بيبرس الجاشنكير عقوبة بعض الأمراء، وصار يقررهم على من كان سببًا في قتل الأشرف خليل. (السلطان السابق) ثم رسم الأمير كتبغا بقطع أيديهم وأرجلهم، وسمروا على الجمال، وطافوا بهم في القاهرة ثم وسطوهم في سوق الخيل.

وفي سنة ٨٢٧هـ كان هناك رجل أعجمي بمصر ينصب على النساء والأطفال، ويقتلهم، وينزع لحمهم عن عظمهم، ويبيع ذلك على الفرنج كل قنطار بخمسة وعشرين دينارًا، فلما غمز عليه قبض عليه السلطان الأشرف برسباي، وأشهره في القاهرة، وقطع يديه، وعلقهما في رقبته، ثم وسطه.

وفي سنة ٨٧٧هـ تم تسمير أخوة القائد سوار وأقاربه على جمال، وهم عرايا، ورءوسهم مكشوفة، والمشاعلية تنادي عليهم: (هذا جزاء من يخامر على السلطان)، ثم توجهوا بهم إلى باب النصر، فوسطوهم،



فأقاموا معلقين يومًا وليلة، والناس ينظرون إليهم ثم أنزلوهم، وغسلوهم، وكفنوهم، وصلوا عليهم.

وفي سنة ٩٠٢هـ ابتدأ السلطان الشاب الناصر محمد بن قايتباي في الطيش، ومخالطة الأوباش والأطراف، وحملت إليه مركب صغيرة، فجعلها في البحرة، ووضع بها حلواء وفاكهة وجبنًا مقليًا، وصار ينزل في المركب بنفسه، ويبيع كما يصنع البياعون، وكان كل ذلك خفة لصغر سنه ثم أنه عرض المحابيس، فأطلق منهم جماعة، وأمر بإتلاف سبعة أنفار من المفسدين كانوا معهم في السجن، ثم أدخلوهم إلى الحوش، فوسطهم بيده، وعلمه المشاعلي كيف يوسط، ثم قطع أيديهم وآذانهم وألسنتهم بيده، والمشاعلي يعلمه كيف يصنع**!!**

وفي سنة ٩١٩هـ رسم السلطان قانصوه بتوسيط مملوك من مماليكه، وقد قتل قتيلًا، فلما عرضوه على السلطان أراد ضربه بين يديه، فتعترس قدام السلطان، فحنق منه، فرسم بتوسيطه، فوسطوه في الرملة.

الشغل (السم):

وكان يرد في عدة مرات من كتاب ابن إياس أن أحد الأعيان مات مشغولًا أو أن السلطان شغله، وهذا يعني أنه دس له السم في الطعام.

السلخ:

وهي من الطرق البشعة في الإعدام، وكان يروى أن أحد القادة كان يسلخ خصومهم من الأعراب من الرأس حتى القدم.

وفي سنة ٩٠٣هـ قبض على إنسان زعموا أنه ينبش القبور على الموتى، ويسرق أكفانهم، فأمر السلطان الناصر بسلخ وجهه، وهو حي، فسلخوه من رأسه إلى رقبته، وأرخوه على صدره، وصار عظم



رأسه ظاهرًا، وطافوا به في القاهرة، ثم علقوه على باب النصر، واستمر معلقًا إلى أن مات.

وفي سنة ٩١٩هـ جاء كاشف الشرقية (واليها) بأحد أولاد شيخ العرب ابن قرطام يسمى صالح، وهو من بني حرام، فسلخ جلده، وحشاه تبنًا، وأركبوه على فرسه، وألبسه زمطه على رأسه، وألبسه كبرة حرير، وكان شابًا جميل الهيئة، فتأسف عليه الناس.

الذبح:

وهي الطريقة المشهورة، وبلغ الأمر أن أحد السلاطين كان يمارس الذبح بنفسه.

ففي سنة ٨١٢هـ أسرف الملك الناصر فرج بن برقوق في قتل مماليك أبيه، فكان يسكر إلى نصف الليل، ويخرج إلى الحوش، وهو سكران يعرض المماليك الذين في السجن بالأبراج، فيحضرونهم في زناجير، فيقدمون إليه واحدًا بعد واحد، فيقول: (من هذا؟)، فيبطحونه على الأرض، فيذبحه بيده ثم يدوس على وجهه برجله، وربما كان يبول عليهم أو يصب عليهم النبيذ، وقد تجرأ على القتل حتى صار يقتل في كل ليلة نحو عشرين مملوكًا.

الرمي بالنشاب:

وهي طريقة استحدثها أحد القادة لمعاقبة خصومه، ففي سنة ٨٧٦هـ ظفر القائد سوار بخصمه قرقماس، فقتله شر قتلة.. قيل إنه أوقفه في مكان، وبنى عليه حائطًا، وقيل بل علقه في شجرة، واستمر يرمي على بالنشاب حتى مات.

الشنق:

وهي طريقة الإعدام الأكثر شيوعًا في أيامنا هذه، ويبدو أن لها



أصولًا قديمة كما يظهر في أخبار ابن إياس.

ففي سنة ٨٧٩هـ رسم السلطان قايتباي بشنق جارية بيضاء جركسية، فشنقت على جميزة، وكانت هذه الجارية حملت من بعض مماليك السلطان، فلما علم السلطان بذلك شنق الجارية، وأغرق المملوك، وقيل بل خصاه، ونفاه إلى الشام.

وفي سنة ٩٠٩هـ رسم السلطان قانصوه بشنق علي بن أبي الجود، فشنق على باب زويلة، واستمر معلقًا ثلاثة أيام لم يدفن حتى نتن وجاف.

وفي سنة ٩١٥هـ تم القبض على جمال الدين الزغلي (أي مزور العملة) الذي تسحب من المقشرة (أي هرب من سجن المقشرة)، فرسم السلطان قانصوه بشنقه، فأشهروه، وهو عريان على حمار، والمشاعلية تنادي عليه حتى أتوا به إلى بيت شخص من الأمراء، فشنق هناك على بابه، وشنق معه خمسة أنفار كانوا يعملون الزغل معه.

وفي سنة ٩١٨هـ قبض على شخص من الأتراك يدعى دمرداش كان يتوجه إلى الصحراء، وينبش قبور الموتى الجدد، ويأخذ لحمهم وعظمهم، ويبيع ذلك على الفرنج، فلما تحقق السلطان قانصوه ذلك أمر بشنقه، فسمروه على جمل، وأشهروه في القاهرة حتى أتوا به إلى داره بالقرب من دار البطيخ، فشنق هناك.

وفي سنة ٩١٩هـ تم شنق رجل وامرأة زنيا مع الإحصان، ورسم السلطان قانصوه بأن يشنقا في حبل واحد، ويجعلا وجه الرجل في وجه المرأة، فصلبت المرأة، وهي بإزارها، وعليها أثوابها مسبلة، فلما شنقا جاء الناس أفواجًا أفواجًا يتفرجون عليهما، وبقيا يومين قبل أن يدفنا.

وفي سنة ٩٢٠هـ قتل خياط صبيًا، ورماه في بئر، فلما شاع أمره قبضت أم الصبي على الخياط، وعرضته على السلطان، فاعترف بقتل



الصبي، فرسم السلطان بشنق ذلك الخياط في المكان الذي قتل فيه الصبي، وقيل رسم السلطان بأن تقطع محاشمة، وتعلق في عنقه، وهو مشنوق، ففعلوا به ذلك.

الخازوق:

وهي طريقة بشعة للإعدام ظهرت في ذلك العصر، وشاعت بعد ذلك في العصر العثماني، والعصور الوسطى في أوربا، وكان يغرز رمح طويل في جسم الإنسان من الأسفل إلى أعلى، ويبقى الضحية معلقًا برمحه حتى يلفظ آخر أنفاسه.

وفي آخر العصر المملوكي أمر السلطان قانصوه بخوزقة طحان قتل صبيًا، فخوزقوه في المدابغ.

التغريق:

وهي طريقة للإعدام كانت تستخدم على نطاق ضيق.

ففي سنة ٩١٥هـ قبض والي القاهرة على امرأة تسمى أنس، وكانت قبيحة السيرة تجمع عندها بنات الخطاء، وكانت ساكنة بالأزبكية، فأرسل السلطان قانصوه بالقبض عليها، فلما قبضوا عليها رسم السلطان بتغريقها، ويقال إنها فدت نفسها بخمسمائة دينار، ورسم بنفيها.

أما عن استخدامات التعذيب نفسه، فكان له أكثر من سبب، أهمها هي استخدام التعذيب ضد الأمراء أو المغضوب عليهم لاستخلاص الأموال منهم، وأشهر من تم استخدام تلك الوسيلة ضده هو الأمير يحيى بن عبد الرازق.

ففي العام ٨٧٤ هـ صودرت أمواله أكثر من مرة وتولى الاستادارية عدة مرات، وحين كانوا يعزلونه ويولون غيره، كان



يعجز غيره عن الوظيفة فيعيدون الأمير يحيى هذا لمنصبه، ثم يعزلونه، وعندما يعزلونه كانوا يصادرون أمواله ويعذبونه ثانية.

قد صودر الأمير تسع عشرة مرة، واحتاج حتى باع حوائج بيته وقماش خيوله بعد بيع أملاكه، واستمر على ذلك إلى أن صادره الملك الأشرف أبو النصر قايتباى ذلك الشيخ الفقير بعد أن بلغ الثمانين من عمره وبعد أن استهلكته المصادرات السابقة من قبل قايتباى.

ولم يترفق به قايتباى في هذه السن ولا في هذا الفقر بل أوقع عليه العذاب الشديد حتى مات تحت العذاب، وفي المرة الثانية قبل موته حينما بلغ من الكبر عتيًا، حبسه بالبرج من القلعة وطلب المال فلم يدفع لعدم مقدرته على الدفع، فأجرى عليه العقوبة إلى أن أشرف على الموت، وحمل إلى البرج المذكور فدام عليلًا يتداوى إلى أن مات في يوم الخميس ثامن شهر من شهر ربيع الأول وقد جاوز الثمانين من العمر.

وكانت وسيلة تعذيبه هي الضرب، فقد ضرب ضربًا فظيعًا مبرحًا حتى طار لحم جسده عن بدنه، ونزلوا به من القلعة في تابوت وعلى رأسه طاقية كشف، وتوجهوا به إلى منزله، فغسلوه وكفنوه، وصلوا عليه.

السبب الآخر هو العزل عن الوظيفة، فقد كانوا يعزلون ما يشكّون في ولائه للسلطان فيقومون بالتعذيب وقت العزل.

ففي يوم السبت ١٣ ربيع الأول للعام ٨٧٣ هـ غضب السلطان قايتباى على قاضي قضاة دمشق «ابن الصابوني» فضربه ضربًا مبرحًا بين يديه بقاعة الدهيشة بالقلعة، لأنه لم يدفع للسلطان المال الذي طلبه منه وهو مائة ألف دينار، ولم يزل يضربه حتى أذعن، فحملوه إلى الحبس ليدبر أمره في الدفع.



وفي يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الثاني ٨٧٣ سافر القاضي ابن الصابوني إلى دمشق بعد عزله ومصادرته وحبسه بعد أن التزم للسلطان بدفع المائة ألف دينار، وسافر معه السيفي جانبك الخاصكي ليحرسه ويرافقه حتى يسدد ما التزم به.

مثال آخر حدث في يوم السبت الخامس عشر من جمادى الثانية للعام ٨٧٣ هـ أمر السلطان باعتقال ابن العيني بالبرج في القلعة بسبب ما تأخر عليه من المال وظل محبوسًا بذلك البرج إلى يوم الأربعاء ١٩ جمادى الثانية، ثم أطلقه السلطان بعد أن حمل المال، فأكرمه السلطان وألبسه التشريفة ورجع لداره مكرمًا معظمًا.

وفي شهر شوال للعام ٨٧٦ هـ تولى «الحافظ القطب الخيضري» قضاء القضاة بدمشق وكاتب السر بها بعد أن قاسى أهوالًا من التعذيب، وقرر عليه السلطان ثلاثين ألف دينار كغرامة، فدفع بعضها والتزم بدفع الباقي، وأعاده السلطان للولاية بعد ما فرضه عليه، وأكرمه السلطان فأنزله ضيفًا في داره التي كان بها حين كان أميرًا، وزاره السلطان في تلك الدار فوجده نائمًا فما أراد إيقاظه، وحين استيقظ وعلم بزيارة السلطان إليه وهو نائم أرسل هدية للسلطان، فلم يقبلها السلطان وأخبر أنه ما حضر إلا ليزوره.

وكما نرى فقد كان التعذيب يعد أسلوبًا لا علاقة له بالمشاعر، مثله كمثل العمل، يقومون به من واجب القيام به وفيما خلاف ذلك هم أصدقاء محبون لبعضهم البعض، فقد رأينا تغير حال السلطان معه من التعذيب إلى الإكرام والحنان وذلك بعد أن دفع له المال.

وقد سبق للسلطان قايتباي في شهر رجب من نفس العام أن أصدر مرسومًا للشام بإعادة القاضي الحنفي إليها عوضًا عن القاضي الحلاوي المعزول عن القضاء وأمر بأن يدفع غرامة عشرة آلاف



دينار فإن امتنع فلابد من إرساله مسجونًا للقلعة، فأذعن القاضي الحنفي، وأرسل السلطان بالكشف عن القطب الخيضري قاضى القضاة بدمشق وكاتب السر بها ومصادرة ما لديه، فلم يوجد لديه شيء فعزموا على القبض عليه وإرساله للقلعة، ولكنه اختفى وحضر للقاهرة سرًا، وكان من أمره أن قبض عليه السلطان ولاقى أهوالًا من الضرب والتعذيب عاد بعدها لمنصبه مكرمًا بعد أن دفع للسلطان ما أرضاه عنه.

كان تفنن السلاطين في التعذيب يخيف الجميع من المسئولين والقضاة وخلافه، حيث ان التعذيب كان هولًا عظيمًا لا يتخيله بشر، حتى أن بعض المسئولين كانوا يموتون من الخوف من مجرّد فكرة أن يواجه السلطان ويحاسب لديه.

في يوم الاثنين التاسع من ربيع الآخر في العام ٨٧٤ هـ مات القاضي المشهور في عصره «عبد الرحيم ابن البارزي»، فقد مات خوفًا من السلطان.

فقد جاء من الشام لمصر، وأرسل هدية للسلطان تعظيمًا له، فردها السلطان عليه غاضبًا، وبلغه أن السلطان توعده قائلًا: عند من يهرب مني؟ هذا هو وقع في القفص، فهلع القاضي مما سمع، فاشتد مرضه بالصرع فمات، مات خوفًا ورعبًا من السلطان ومواجهته.

وهكذا تعددت طرق التعذيب والقتل والاغتيالات في العصر المملوكي في أوقات الجبروت والقوة.

المهرجانات: المحمل المصري





في العصر المملوكي في أوقات الرخاء وحالات اللا حرب، كانت الاحتفالات اليومية تكثر في الشارع المصري والشامي، بشكل شبة يومي كانت هناك الاحتفالات التي تقام لكل مناسبة، انتصار في مقاومة ما، اعتلاء أمير لعرش ما، عودة أمير من مكان ما، كانت الاحتفالات هي مهرجان يقام بشكل شبه يومي وفيه تكثر العروض والمغريات والاحتفالات والغناء، وكانت مظاهر الفرحة تظهر على العوام بشكل واضح، حيث يستعد الكل للاحتفال بطلاء المنازل وتعليق الزينة والزغاريد.

ولكن كل تلك الاحتفالات لا تضاهي أهم احتفال مصري الطابع يقام مرّة واحدة كل عام، وهو احتفال خروج المحمل المصري إلى الحجاز حاملًا كسوة الكعبة الجديدة.

كانت مصر تصنع الكسوة منذ عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بإيعاذ منه لما في مصر من صنّاع مهرة في صناعة الغزل والنسيج، وكانت ترسل سنويًا إلى الحجاز في موسم الحج، ولكنها



تحولت إلى احتفال ومهرجان في عصور المماليك.

تحديدًا في أيام حكم الملكة شجر الدر والظاهر بيبرس البندقداري قاهر المغول والصليبيين.

لمدة تزيد على الثلاثة أيام كان المهرجان يقام في شوارع القاهرة سنويًا بحضور الحجاج إلى بيت الله الحرام من شتى أنحاء البلاد خاصة الأندلسيين والشمال إفريقيين من الذين تجبرهم مواقعهم الجغرافية في المرور إلى مصر ثم التحرّك مع الموكب العظيم هذا.

سمّي هذا المهرجان باسم «دوران المحمل».

دوران المحمل هو احتفال خروج كسوة الكعبة من مصر إلى الحجاز وكان هناك احتفال قبله وهو الاحتفال بانتهاء العمل على الكسوة الجديدة تحديدًا اليوم السابع والعشرين من شوال واليوم الثالث عشر من ذي القعدة كل عام.

كان الاحتفال يواجه أكثر من مرحلة، وكلها يحتفل فيها المصريون والقادمون من شتى البقاع بالمحمل وطريق خروجه، وتنقسم مراحله إلى أكثر من مرحلة.

المرحلة الأولى: الاستعداد

كان هناك نوع من أنواع الزينة المشهورة التي تستخدم في التزيين على واجهات البيوت قب لهذا الحدث بيوم واحد، زينة نورانية تشبه زينة شهر رمضان المبارك التي يقوم المصريون بتعليقها كل عام في نفس الشهر الكريم على أوجه المنازل والبيوت، وهي مختلفة قليلًا عن زينة رمضان من حيث الشكل ولكنها تتفق معها من حيث المضمون.

ثانيًا: كانت السيدات يحضرن صحون المياه ومن ثم تبرّدها بطريقة ما ثم تملأها بالورود والمعطرات محببة للنفس بكميات كبيرة، ثم تتركها حتى يحين وقت الاحتفال.



ثالثًا: المحال والدكاكين تتزين بتلك الزينة والأعلام الملونة والبضائع اللي تستهلك في ذلك اليوم، كالتمر والخمار الملون وخلافه، ثم يقبعون في انتظار بدء الاحتفال والمرور من شوارعهم وحواريهم.

المرحلة الثانية: المحمل

كانت الكسوة حينما يتم الانتهاء من غزلها والنقش عليها وتكون قد انتهت كليًا، يتم تحميلها في صناديق معطرة بالورود والعطور الزكية، والكسوة نفسها التي كانت تصنع في دار الكسوة في القاهرة في مصنع الخرنفش في القلعة، كان يتم تصنيعها بخيوط القطن والكتان المغسول بمياه زمزم الحجازية.

أم القائمين على الصناعة والذين كان يتم اختيارهم بدقة من حيث جودة الإنتاج والمهارة، يتوضؤون ثم يتعطرون للتخلص من أي روائح كريهة أو منفّرة كي لا تلتقطها الكسوة الجديدة وقت صنعها، وحينما ينتهون من صناعتها ثم غسلها بالعطور ومياه زمزم بالمصنع كانوا يحمّلونها بداخل الصناديق المعطّرة، ثم يقومون بوضعها فوق الجمال المخصصة للنقل والتي كانت بدورها يتم تزيينها بالألوان والزينة.

وكانت هناك ناقة في المقدمة تحمل هودجًا كبيرًا ملونًا ومتزينًا بالزينة وهو في العادة يكون فارغًا تمامًا، وهو هودج رمزي احتفالًا بخروج السلطانة شجر الدر بنفسها إلى الحجاز في أوّل احتفالية للمحمل.

المرحلة الثالثة: الموكب

الموكب حينما كان يتم تجهيزه، كان خرج منذ الصباح فيقوم بارتياد القاهرة كلها لمدة لا تقل عن الثلاثة أيام، كان المحمل أو الموكب المصاحب للمحمل مكون من ركائز كثيرة لكونها احتفالية رسمية كما كان يحدث في أوروبا من مهرجانات تقام في الشوارع والميادين العامة



باصطحاب الفرق الموسيقية والراقصين ولاعبي الأكروبات.

أما عن المحمل، في البداية كان يتقدم الموكب رجال من القصر السلطاني يسمّون البيراقدارية، هؤلاء كانت كل وظيفتهم تنحصر في أنهم يحملون الأعلام الملونة ويسيرون في المقدمة «وهم من المشاة» وبين الموكب والهودج كنوع من نشر الفرحة، وراءهم أطباء مصريون يتطوعون للسفر في الموكب ليقوموا بمعالجة الحجاج من كل الأجناس هناك.

ثانيًا: كان أمراء المماليك الكبار وذوي الشعبية يقومون بتلوين وتزيين أحصنتهم بالملابس والمجوهرات الثمينة، أما عن الأمراء أنفسهم فكانوا يختارون ارتداء أفخم الملابس التي يمتلكونها من الحرير والقطن الفاخر احتفالًا بتلك المناسبة السعيدة في الموكب.

ثالثًا: كانت فرق المنشدين الأزهريين تصطحب الموكب العظيم، وهؤلاء كانوا يسبقون الموكب فيقومون بالإنشاد ويتغنّون في حب الله ورسوله، ثم من وراءهم الموسيقيون بالمزامير والدفوف.

ثم من خلف كل هذا كانت الفرق التي تمارس الرقص بالخيول، فرق استعراضية ترقص بالخيول والمراكيب على أنغام الموسيقى المعزوفة بالخلف والتي كانت مكونة من موسيقيين على كل لون، وفرسان صغار السن يقفون على الخيول في استعراضات إكروباتية، يقفون على أيديهم على سبيل المثال، أو يقفزون فوق ظهر أحصنتهم

بعد كل تلك الأشكال والألوان من الاحتفالات في آخر الموكب كان يظهر شيخ ملتحٍ ممتطيًا ناقة راقصًا متهاديًا يمينة ويسرة بوجهه ذاكرًا الله كالدراويش، صوفيًا هو، وعلى الجانب الآخر شيخ آخر يسمّى «شيخ القطط» وكان جلّ دوره يكمن في جمع قطط الشوارع من أمام الموكب ثم يصطحبها معه، وهي عادة لا علم لنا بها وما



الغرض منها ولكنها كانت تحدث في الموكب على يد ذلك الشيخ، ثم يتضمّن الموكب الحجاج من كل بلد ودولة من اللاتي يتقابلن في طريقهن الحدود المصرية كحجاج شمال إفريقيا «مراكش وقرطاج» وما يليها من دول إفريقيا وحتى تركيا.

وماذا بعد تحرّك الموكب المهيب هذا؟

كانت السيدات من كل أنحاء القاهرة تقمن باستقبال الهودج بالزغاريد والتهليل، الزغاريد وهي حركة متوارثة بدوية تعبّر عن الفرحة بتخفيض الصوت إلى اقصى درجاته مع تحريك اللسان يمينًا ويسارًا، أصوات الزغاريد تعلو خاصة في منطقة العباسية قديمًا «القطائع» حيث إن الأهالي كانوا في تلك المنطقة تحديدًا والتي كانت صحراء في الطريق يستطيعون الاقتراب من الموكب كثيرًا والتبرّك به، النساء كن يستمررن في الزغردة ومحاولة لمس كسوة الكعبة لكي يتبركن بها، أما عن الرجال فكانوا يغنون مع أنغام الموسيقى أو ينشدون شعرًا غنائيًا من تأليفهم أو مما يحفظون.

جو عام من البهجة والفرحة تعم أرجاء العاصمة، بين مهلل وموحّد وداع.

كانت المشروبات الخفيفة الباردة والساخنة والطعام يتم توزيعها مجانًا على المارة، المياه المثلجة بإضافة الورود للحجاج والمحتفلين، وكان الذاهبون إلى الحج تتم معاملتهم معاملة أولياء الله الصالحين ويتم التبرّك بهم وقت خروجهم بين الموكب لما في قلوب العاشقين من إيمان وحب.

أما عن أمراء المماليك فقد كانوا يوزعون الأموال والعطايا والذهب في شكل احتفالي وكانوا على خيولهم يمطرون المتفرجين والمحتفلين بها، والأموال والذهب والهدايا وغيره.



ذلك الاحتفال كان مهمًا جدًا لدرجة ان السلاطين من المماليك ابتدعوا منصبين مهمين جدًا في الدولة المملوكية، منصب أمير الحاج المسئول عن الموكب وهو السلطة الثالثة بعد السلطان والدفتردار، أكثر من سلطة الوزير نفسه، ومنصب آخر وهو ناظر الكسوة وهو على درجة وزير للدولة ويعد المسئول عن مصنع الكسوة، كان المهرجان من الأهمية أنه كان عالميًا فعلًا لدرجة أنه كان السيّاح من كل دولة في العالم الإسلامي وغير الإسلامي يحضرون قبل المهرجان المسمّى بدوران المحمل ليحضروا ويتفرجوا ويستمتعوا.

أما عن آخر الموكب في نهايته، كانت تنضم فرق تمثيلية كوميدية مسرحية الطابع أسماهم المريدون «عفاريت المحمل»، وهو يعتبر أول ظهور للمسرح الكوميدي أو مسرح الشارع في ذلك الزمن البعيد في العالم العربي منذ خمسمائة عام.

من هم عفاريت المحمل؟

بضعة ممثلين محترفين في فن الارتجال، يعرضون تمثيليات وعروض مضحكة شبيهة بما يقدمه المهرجين في السيرك، شيء من هذا القبيل وأطلق عليهم العوام والمؤرخين أيضًا «أصحاب المساخر»، كلمة «انت مسخرة» اخذت من ذلك المسمّى تحديدا اي أنك لممثل كوميدي بارع وهي من المادة «سخر».

في بعض المناطق مثل حي «باب اللوق» وحي «بولاق وبركة الرطلي» كانوا يقيمون بخيامهم أمام الموكب في فترة راحاته الليلية ليبدأوا عروضهم الساهرة.

اما عن أصحاب المساخر فكانوا يرتدون لباس ملون بأزهى الألوان، الأحمر والأصفر، يدهنون وجوههم بمستحضرات التجميل والصبغات، ويثبّتون ذقونًا لكي يثيروا غريزة الضحك فيمن يقرر



مشاهدتهم، وكانوا يكونون حلقات دائرية امام الموكب ثم يشرعون في تشخيص وتمثيل القصص.

قصص من النوع التراجيديا ولكوميدي وقصص محاكاة للسلطان والأمراء والحاشية ورجال الدولة وغيرها، عروض كاملة مثل المسرح الأوروبي فيما قبل عصور النهضة.

وكان يصطحبهم بلياتشو او البهلول او المهرّج، والمصارعين الأقوياء والذين كان يتم نصب حلبة للقتال لهم فيقومون باستعراض قواهم والمصارعة او المنازلة لإمتاع الجمهور، وأصحاب الأرجل الطويلة، الذين كانوا يرتدون أقدام طويلة من الخشب يقدمون بها عروض راقصة.

أيضًا كان هناك أصحاب العروض الخطرة، على سبيل المثال السير فوق الحبل، والذي عرفته مصر قبل أن تعرفه أوروبا نفسها، ومن تلك العروض هنالك عرض مشهور كثيرًا قام على تقديمه أكروباتي مصري وقتها نال من الشهرة ما نال، بأنه ربط حبلًا رفيعًا بين مئذنتي مسجد السلطان حسن ثم إنه وقف على الحافة فوق الأرض بأمتار كثيرة الجمهور يهلل، ثم إنه قام بإغلاق عينيه الاثنتين، وقام بالسير على الحبل ذهابًا وإيابًا، بين إرعاب الناس وانبهارهم سار هو، بين تهليل وتصفيق ومباركة.

هناك أيضًا العروض العضلية واستعراض القوة والقفزات الخطرة التي كانوا يقفزونها فوق باب النصر.

المتفرجون الذين كانوا يشاهدون عفاريت المحمل وفي قمة استمتاعهم، كان يتم إغدافهم بالنقود كعطايا لكي يفرح الجميع، ربما لأن المماليك الذين كانوا يقومون بتوزيع وإلقاء الأموال بذلك الكرم المبالغ فيه كانوا مقتنعين تمام الاقتناع أن تلك الأموال ستزيد أضعافًا



مضاعفة كون أن عفاريت المحمل يقدمون عروضًا خيرية في مناسبة دينية للحجاج، على سبيل البركة يعني، والفرحة كانت تعم على الكل.

من المواقف المثيرة التي مرّت على عفاريت المحمل، وهو موقف خاص بصغار المماليك في عصر متأخر لهم.

لما رأى المماليك كم الأموال التي تلقى فوق عروضهم بكثرة، شيطانهم زاد من تفكيرهم في الاستيلاء على تلك الأموال، ازداد طمعهم في تلك الأموال اللي كانت توزّع على عفاريت المحمل

فقام المماليك بدهان وجوههم ليخفوا ملامحهم ثم ارتدوا الملابس الملوّنة مثل العفاريت بالضبط، ثم امتطوا الأحصنة التي يمتلكونها بالعكس كما يفعل العفاريت في عروضهم، ثم قاموا ببعض الأفعال البهلوانية السيئة ليجاروا ما يقدمه العفاريت في المهرجان.

ولكن لأنهم كانوا فاشلين في التقليد وقد كانت خيولهم عربية أصلية وملابسهم ليست بالبالية، فقام المصريون بالتعرّف عليهم وكشفهم ثم أبوا أن يلقونهم بالأموال وازداد غضبهم من تلك الفعلة الحقيرة التي فعلها المماليك الصغار للاستيلاء على أموال الفقراء من العفاريت.

شعر المماليك وقتها بالإهانة الشديدة لأنهم أهانوا أنفسهم للا شيء، فأقدموا على إخراج سيوفهم وهاجموا المصريين بالقوة وقاموا بسرقتهم علنًا وسرقوا مجوهرات السيدات ممن حضرن الموقف والاحتفال بالمحمل، فلم يكتفوا بهذا بل إنهم قد هاجموا حرمة البيوت وسرقوها ثم هاجموا العفاريت الحقيقيين كنوع من فرض السيطرة والانتقام.

الحاضرون من المصريين رأوا تلك المهانة من المماليك فقامت معركة صغيرة بين المماليك والمصريين الأحرار، ثم تطوّر الأمر إلى استخدام الأسلحة والمواجهة العسكرية.



حتى أن السلطان نفسه تدخّل وحاول فض المعركة بأن قبض على المماليك ثم عاقبهم اشد عقوبة، ثم أهدي العفاريت الصلاحية لاستقدام عروضهم دونا عن غيرهم، وصارت عروضهم حكر للعفاريت فقط.

وقد استمر العفاريت في تقديم عروضهم للعامة حتى العصر الحديث حينما تم إلغاء المحمل المصري.

كيف كان يسير الاحتفال؟

الاحتفال والموكب كانا يبدآن من منطقة تسمّى «الخرنفش» أمام مسجد القاضي «عبد الباسط» قاضي قضاة مصر والمشرف على صناعة الكسوة الشريفة وقتها.

ثم تخرج الكسوة في احتفال عالمي من مصنع الخرنفش ويخرج وراءها معظم الشعب المصري والحجاج من سائر أنحاء الأرض صوب ميدان «الرميلة» أو القلعة قديمًا.

ثم ينضم للموكب من الرميلة قضاة المذاهب الأربعة، وكل أئمة المساجد ورؤساء الطوائف والحرف ومشايخ الطرق الصوفية بأعلامهم وبيارقهم الملونة.

ثم ينضم الدراويش والزاهدون، ويطوف الموكب في شوارع القاهرة من ميدان «الرميلة» مسقط رأس الاحتفالية والمهرجان، حتى يصل الموكب إلى الفسطاط، المحطة الثانية عند مسجد الحاكم بأمر الله بجانب باب النصر، ثم يستمر الاحتفال حتى في اتجاه السويس حيث السفن والمراكب التي تم تجهيزها لتصطحب الكسوة والموكب حتى ميناء جدة ومن ثم تستمر الرحلة بواسطة الجمال والركوب إلى مكة لتسليمها إلى أمير الحج وأشراف مكة في احتفال مهيب هناك أيضًا، وقتها أمير مكة كان يقوم باستقبالهم بنفسه ثم يقبّل حوافر الجمل إيمانًا منه بعظمة الموضوع وتبجيلًا للحاكم المملوكي وهي كانت عادة



الاستقبال هناك.

احتفال بهيج مدّته ثلاثة أيام وليالٍ، فرحة ما بعدها فرحة وسياح وزوار من كل منطقة في الشرق والغرب، مغنى وتواشيح ورقص ومدح ديني، وينتهي بوصول الموكب للسويس وذهابه إلى الأراضي المقدسة.

بعدها «وبعد عيد الأضحى والذبح تحديدًا» يرجع المصريون لأشغالهم وما كانوا يقومون به قبل الموكب، فقد كان الموكب بمثابة عيد جديد إضافي عليهم بالإضافة إلى عيد الفطر والأضحى.

وكانت تلك من أشد العادات التي ظهرت واستمرت في عز تمكّن السلاطين المماليك الأتراك والبحرية من الحكم، في وقت العلو والاستقرار كان أشهر ما كان يحدث في الشوارع عامة إما التعذيب أو الاحتفال، وتلك كانت أيام الرخاء من المماليك.

إما المظاهر العامة والتقسيم المجتمعي.

السلطنة المملوكية:
نظام الحكم والنفوذ



رسم من سنة ١٣٣٤م، أي خلال العصر المملوكي، يُظهر رجلًا في حضرة قاضي مَعَرَّة النُّعْمَان.

أولًا: السلطنة

إن نظام الحكم في الدولة المملوكية هو نظام السلطنة القائم من الأساس على أسس الخلافة الأسلمية، فهي دولة دينية في الأساس، تأخذ بالطابع الديني والمسميات العربية في الحكم، لذا كان النظام في طابعه هو الخلافة الإسلامية الديموقراطية، لكن في الحقيقة هو كان نظام سلطاني جائر، قائم على الانقلابات الدموية العسكرية.

فقد كان السلطان الذي يفرض سلطنته على البلاد هو السلطان الأكثر هيبة وانتصارًا وشعبية ومن له أكثر عددًا من المماليك تحت يده، لا بالتوريث ولا بالشورى، فقط الأكثر قوة هو الأكثر جدارة بالعرش.

فإذا توفي السلطان القائم أُتيحت الفرصة لأقوى الأمراء أن يخلفه في الحكم، وربما رأى ذلك الأمير الأقوى أن الظروف غير مؤهلة لاعتلائه العرش وأن هناك من الأمراء الآخرين من ينافسه في



الاستحواذ على العرش، فيلجأ في تلك الحالة إلى تعيين ابن السلطان المتوفي مكان أبيه كحل مؤقت حتى يتم حل الموقف، وعندها يسهل على أقوى الأمراء عزله واعتلاء عرش السلطنة مكانه وفرض السيطرة على مقاليد الحكم.

ثانيًا: مجلس المشورة

وبالرغم من بسط نفوذ السلطان الجديد ومماليكه وسيطرته على الاقتصاد والعرش وأمور السلطنة، إلا أنه لم يقدر أي سلطان عن التخلي عن مجلس مشورة للقيام بأعمال وأعباء أخرى كالحروب والفتوحات الفتاوى وبعض أمور العوام التي تخص السلطنة، فكان كل سلطان يقوم بتعيين مجلس مشورة يرأسها هو، ومكون من أتابك العسكر والخليفة العبَّاسي والوزير وقُضاة المذاهب الأربعة وأُمراء كبار وعددهم أربعة وعشرون أميرًا، كانوا مستشارين للسلطان، يعقد السلطان المجلس ويرأسه ثم يقوم بطرح الأمور المختلفة للبحث والمناقشة.

ثالثًا: السلطة الثالثة

يأتي بعد السلطان ومجلس المشورة عدد من الوظائف التي تشكّل السلطة الثالثة في البلاد، والتي بدورها تهتم ببعض الأعمال التي يكلّفهم بها السلطان وهم من أصحاب النفوذ الكبيرة على العوام، منهم نواب السلطنة؛ والأتابك، وهو القائد العام لِلجيش المملوكي، وقد أتاحت له وظيفته الاستحواذ على نفوذ كبيرٍ في الدولة؛

يأتي بعدهم الوزير الذي تضاءلت وظيفته في عصر المماليك نتيجةً لوجود نائب للسلطنة، حيث لم تتعد اختصاصاته تنفيذ تعليمات السلطان حرفيًا هو ونائب السلطنة، كما أتيح له الإشراف على شؤون



الدولة المالية.

هناك أيضًا الإدارة المحلية في المدن والأقاليم فقد تولى الإشراف عليها عدد كبير من الولاة والذين اختارهم السلطان دائمًا من بين الأمراء ممن حوله.

بِالإضافة إلى الشؤون السياسية والإدارية.

أما عن سلطة السلطان نفسه فقد كانت إحدى مهامه هي تحضير كسوة الكعبة وتعيين أمير الحج للإشراف على راحة وسلامة الحجاج بالإضافة إلى الإشراف على الإقطاعات والتبرعات والعطايا والضرائب وغيره.

رابعًا: الخليفة

لنا أن نعرف أن بعد سقوط بغداد في يد المغول، نقل المماليك الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة بحيث استمرت شكليًا لعدة سنوات، وكان الخليفة هو خليفة شرفي ليست له سلطة تذكر، فقد أجبر على التنازل أو التفويض عن كل سلطاته للسلطان المملوكي، على سبيل المثال الولاية والعزل، وتجهيز الجيش، وإعلان الحرب، وإقطاع الإقطاعيَّات وغيرها، بحيث كان الخليفة العبَّاسي نفسه يقع في دائرة سلطة المماليك، فلا أمرٌ له ولا نهي ولا نفوذ.

فقط سلطة دينية اسمية بحيث يتم الدعاء له على المنابر، وأن يحمل لقب أمير المُؤمنين فقط، أما عن تعيينه هو نفسه كخليفة فقد آل التفويض المملوكي إلى مباركة السلطان وقضاة المذاهب الأربعة مباركة شكلية، فقد كان يحق للسلطان تعيين الخليفة أو إقصائه عن الخلافة العباسية.

وعندما يتم إقصاؤه لأي سبب كان فإنه يسجن في القلعة، أو ينفى إلى مدينة قوص بِأقصى الصعيد.



خامسًا: نائب السلطنة

السلطة الأقوى بعد السلطان مباشرة، أو السلطان الثاني بعد السلطان الفعلي للمماليك، وكانت مهامه تتكون من مساعدة السلطان أثناء حضوره، والقيام بِمهامه ومسؤولياته أثناء غيابه، بل كان يمكن لِنائب السلطنة أن يكون سلطانًا آخر فعليًا لا اسميًا أي دون الاسم في حضور السلطان إذا فوضه الأخير بِتصريف شؤون الدولة دون الرجوع إليه، أو إذا كان السلطان صغير السن لا قُدرة له على القيام بأعباء السلطنة، فتلقى تبعتها على نائب السلطنة بتفويض صريح منه.

وانقسم أنواع النوّاب إلى نوعين، نائب الحضرة ونائب الغيبة.

أما عن نائب الحضرة فكانت وظيفته هي تصريف شؤون الدولة في حضرة السلطان يشترك معه في توزيع الإقطاعات ومنح ألقاب الإمارة، ويقيم إلى جانبه في القاهرة.

أما نائب الغيبة فله نفس السلطات ولكن في حالة غيبة السلطان فقط، وهو أقل درجة من نائب الحضرة، وغالبًا يتم تعيينهم في الولايات البعيدة كدمشق وحلب وطرابُلس وحماة وصفد والكرك والإسكندرية.

وكان أعلى هؤلاء سلطة هو نائب الشام «نائب دمشق»، أما عن الإسكندرية فقد أجبر السلطان المملوكي على تعيينه العام ١٣٦٥م بعد حملة بُطرس الأول ملك قبرص على الإسكندرية.

سادسًا: القضاة

بقيام السلطنة المملوكية في مصر، استمر المذهب الشافعي كمذهب لقاضي القضاة معمولًا به مع الجميع.

ولكن عندما تقلّد ابن بنت «الأعز الشافعي» منصب قاضي قضاة مصر سنة ١٢٦١م، اضطربت الأحوال بسبب اختلاف المذاهب مما



اضطرَّ قاضي القضاة للتوقف كثيرًا في أمور تخالف مذهب الشافعي الذي هو مذهبه، وتوافق غيره من المذاهب، فأشار وقتها الأمير «جمال الدين أيد غدي العزيزي» على السلطان المملوكي «الظاهر بيبرس» بِأن يولي من كل مذهب قاضيًا مُستقلًا يحكم بمُقتضى مذهبه.

فوافق الظاهر بيبرس على ذلك عندما كان في اجتماع دار العدل عام ٦٦٣هـ، حيثُ قرر الظاهر بيبرس تعيين قاضي قُضاة لكل مذهب من المذاهب الأربعة مع بقاء الرئاسة للمذهب الشافعي.

ومع إلغاء باقي المذاهب والإبقاء على الأربعة مذاهب المشهورة للسنة فقد أصبحت لا تُقبل شهادة أحد ولا يُرشَّح لوظائف القضاء أو الخِطابة أو الإمارة أو التدريس إلّا إذا كان من أتباع أحد هذه المذاهب فقط.

وفي العام ١٢٦٦م، حدث في دمشق ما سبق في القاهرة وأصبح لكل مذهب قاضي قُضاة، ثم أمسى في كل نيابة من نيابات الشام أربعة قضاة يمثّلون المذاهب الأربعة.

وكان هذا القرار بمثابة الحرب والاضطرابات من أصحاب المذاهب الأخرى مما اضطرَّ المماليك باستعمال القوة العسكرية للقضاء على المذاهب الأخرى، وبخاصة المذهب الإسماعيلي الفاطمي.

وقد قام القضاة في العصر المملوكي بدور مهم جدا في المجتمع إذ امتدت اختصاصاتهم إلى مختلف أنواع القضايا المدنية والجنائية. وكانت جلسات المحاكم يتم عقدها في دور القضاء، فإن لم توجد دار للقضاء فإنها تعقد في المساجد.

أما رجال الجيش، فكان لهم «قضاة العسكر»؛ وهم مختصون فقط بشؤون العسكر وليس لهم ولاية على غيرهم، كما كانوا يفصلون في القضايا الناشبة بين العسكر والمدنيين، وقد جرت العادة أن يصحب

قضاة العسكر للسلطان في أسفاره، بمعنى أن القاضي العسكري كان ذا سلطان على الجند بعكس قاضي القضاة الشرعي الذي اختصت سلطاته على العوام والمدنيين.

سابعًا: البريد

كانت للبريد أهمية قصوى لدى السلاطين المماليك، فقد تطلّبت ظروف الحرب والاضطرابات وجود شبكة بريدية توصل رسائل السلطان من وإلى القلعة مع سالف الثغور والولايات التي تقبع تحت السلطة المملوكية، وهذا كان سببًا داعيًا لتفكير وقرار الظاهر بيبرس في إنشاء شبكة بريدية وإعطائها كل السلطات لتوصيل الرسائل إلى كل أنحاء البلاد.

كان مركز هذه الشبكة هو قلعة الجبل في القاهرة، وتتفرَّع من المركز أربعة فُرُوع هي: فرع يتجه جنوبًا إلى قوص بِالوجه القبلي وما يلي ذلك من النوبة، وفرع يتجه شرقًا إلى عيذاب وسواكن على بحر القلزم (البحر الأحمر)، وفرع يتجه غربًا إلى الإسكندرية وبرقة، وفرع يتجه شمالًا إلى دمياط ومنها إلى غزة ثم يتفرع منها إلى سائر بلاد الشام.

واقتصر عمل البريد على إيصال الأوامر السلطانية إلى كل النيابات في مصر والشام، واستقبال الرسائل من حكام النيابات، واستقبال التقارير من ولاة الأعمال.

وأُقيمت المحطات البريدية على مسافات تبعد إحداها عن الأخرى لمسافة اثني عشر ميلًا، وتفاوتت المسافات بين بعضها البعض بفعل وجود ماء أو قرية، وزودت بما يحتاج إليه ناقل الخبر من زاد وخيل وعلف، كما روعي في اختيار أماكنها توفر المياه أو وجود قرية قريبة كي يستأنس البريديون بسكّانها، وتوفرت كل سبل الراحة للبريدي من حيث محطات استبدال الخير والزاد إلى آخره، فكان البريدي يقطع



المسافة من دمشق إلى القاهرة في مدة أقصاها ثلاثة أيام والعكس صحيح.

كان يُشرف على البريد صاحب ديوان الإنشاء أو كاتب السر، كما أضحى يسمّى مُنذُ وقت السلطان قلاوون، لم يقتصر إرسال البريد بالطرق البرية فقط، بل استخدم البريد الجوي أيضًا عن طريق الحمام الزاجل في الحالات الطارئة فقط، خصّص له برَّاجون يعتنون به ويدرّبونه.

ثامنًا: الدواوين

اعتمد الجهاز الإداري الضخم لِلدولة المملوكية على منظومة ادارية مكوّنة من مجموعة من الدواوين الكبيرة التي ضمّت عددًا ضخمًا من الموظفين لِإدارة مرافق الدولة العامة، على سبيل المثال:

ديوان الجيش: ومهمته هي الإشراف على طوائف الجُند، وتوزيع الإقطاعات عليهم.

ديوان الإنشاء: ومهمته تلقِّي الرسائل المختلفة التي ترد إلى السلطان وإبلاغها إليه وإعداد الردود عليها، وكانت تتبع هذا الديوان إدارة البريد السالف الذكر.

ديوان الأحباس: أي الأوقاف؛ ويقوم صاحبه بِرعاية شؤون المؤسسات الدينية والخيرية من مساجد ومدارس وزوايا، كما يشرف على الأراضي والعقارات المحبوس عليها او الموقوفة.

ديوان النظر: وقد اختص هذا الديوان بِمراقبة حسابات الدولة، والإشراف على إيراداتها ومصروفاتها وما يتبع ذلك من القيام بِصرف مرتبات الموظفين. وكان جانب من هذه المرتبات يصرف نقدًا في حين صرف الجانب الآخر عينًا من غلاتٍ ولحومٍ وتوابل وسكر وشمع وغيرها من الموارد والحاجيات إلى آخره.



وبهذا اكتملت الصورة السياسية للدولة المملوكية خارج القصر.

الطبقات: النسيج المجتمعي المملوكي والألقاب المملوكية

تكون النسيج المجتمعي المملوكي المصري والشامي من عدّة فصائل وطبقات تدفع بعضها البعض لتكمل صورة واحدة متّصلة للمجتمع المملوكي في ذلك العصر، وهو ما يتكون من الآتي.

أولًا: طبقة سلاطين المماليك

اعتبر المماليك أنفسهم الطبقة العسكرية الممتازة؛ نظرًا لحكمهم مصر والشام، فسيطروا على البلاد وأهلها، ونظروا إلى الأهالي على أنهم أقل منهم درجة مجتمعية لا ينبغي أن يشاركوهم الحياة الحربية، وإذا سمح لبعضهم بالمشاركة في شؤون الحكم فبالقدر المحدود الذي تسمح به صلاحيتهم التي حددوها لهم.

ولهم في أصلهم ونشأتهم وطريقة تربيتهم وأسلوبهم الخاص في الحياة وعدم اختلاطهم بأهل البلاد الأصليين سور يحيط بهم ويجعل منهم طبقة ذات خصائص تعزلها عن محيطها الذي تعيش فيه، ولقد تمتع أمراء المماليك بمكانة كبيرة في المجتمع ومنزلة رفيعة عند السلاطين، واستكثر السلاطين من استجلاب المماليك وإحاطتهم بهم رغبة منهم في الإكثار من مماليكهم حتى يكونوا خير عون لهم



ويعتمدون عليهم في الجيش والقصر، فضلًا عن رغبتهم في تملك أعداد عظيمة من الجند والحاشية، وكان السلطان إذا اشترى مماليكًا خاصين به فإنه يرسلهم ابتداءً إلى الطبيب الخاص لفحصهم، ثم ينزلهم في طبقة جنسهم «أبيض، أسود، قوقازي» ثم يرسل إليهم فقيهًا لتعليمهم القرآن الكريم والخط والأحكام وآداب الشريعة، فإذا بلغوا بدأ تعليمهم فنون الحرب، وعندما ينتهي المملوك من هذه المرحلة انتقل إلى الخدمة ويترقى حتى يصبح من الأمراء يومًا ما.

تمتع سلاطين المماليك بثروة كبيرة من الإقطاعات التي كان يفرضها السلطان للأمراء كلّ حسب درجته ومرتبته، ولم تكن الإقطاعات هي المصدر الوحيد لثروة الأمراء بل رتب السلطان للأمراء الرواتب الجارية من اللحم والتوابل والخبز والزيت والكسوة السنوية وغيرها بحسب المراتب.

أما من ناحية اختلاطهم بأبناء البلاد من المصريين فإن الأمراء ومماليكهم لم يحاولوا الزواج من أهل البلاد من المصريين بل اختاروا زوجاتهم وجواريهم من بنات جنسهم اللائي جلبهن التجار غالبا في شيء يشبه القومية المملوكية.

هذه العزلة التي عاش فيها المماليك جعلتهم دائما يشعرون بأنهم أغراب عن أهل البلاد، وعليه فارتبط المماليك ببعضهم البعض حتى أنهم لم يكونوا فقهاء في اللغة العربية بل إنهم أتقنوا التركيّة وتحدثوها بينهم وبين بعضهم كلغة أولى، وقد رأوا في أنفسهم الطبقة الأولى التي هي الأجدر بالاحترام والتقدير ومن خلفهم كل الطبقات الباقية.

ثانيًا: المعمّمون

الطبقة الثانية في نسيج المجتمع المصري في عصر سلاطين



المماليك وهم من أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والأدباء، كما تم تسميتهم بأرباب الأقلام، تمييزًا لهم عن غيرهم من الطوائف المختلفة، وقد كانت العمامة بمثابة التاج غير القابل للزوال، علامة على نفوذهم وسلطتهم.

وقد امتازت هذه الطبقة خاصة العلماء منهم بميزات كثيرة دونًا عن باقي الطبقات والشرائح طوال عصر سلطنة، وأهم الامتيازات التي تمتع بها المعممون.

١- نفوذهم في الدولة

٢- احترام السلاطين وإجلالهم لهم

٣- الحياة الرغدة نتيجة الرواتب الكبيرة التي منّ عليهم سلاطين المماليك بها وهذا نتيجة إلى إحساس المماليك بأنهم أغراب بين أهل البلاد وحاجتهم إلى دعامة يستندون إليها في حكمهم، وطبيعي أن تكون هذه الدعامة هم فئة علماء الدين بحكم سطوة وقوة الدين في نفوس الناس.

أما عن مكانة المعممين من العلماء والقضاة وغيرهم عند عامة المجتمع المماليكي المصري، فلم تقل عن مكانتهم عند السلاطين ذاتهم؛ ذلك أن الناس أكرموا العلماء وأضفوا عليهم مختلف ألقاب التقدير والتفخيم مثل «فقيه زمانه» «عالم عصره» إلى آخره وذلك قوّى شوكتهم عند السلاطين المماليك وقوّى شوكتهم وقد كانت لهم مواجهات كثيرة ضدهم.

ثالثًا: طبقة التجّار

هي الفئة الثالثة التي أسهمت في تشكيل نسيج المجتمع المصري وقتها، ومن المعلوم أن مصر كانت مركزًا للنشاط التجاري بين الشرق والغرب في عصر الدولة المملوكية، وهذا أدى إلى ثراء



التجار وجعلهم طبقة ممتازة وثرية، وقد شعر سلاطين المماليك بأن التجار هم المصدر الأساسي الذي يمد الدولة بالمال خاصة في ساعات الحرج والشدة فعمدوا إلى تقريب التجار منهم ومن عروشهم، واصطفوا منهم جلساء وأصدقاء؛ وبذلك تمتَّع التجار باحترامٍ كبيرٍ ومكانة بارزة في مختلف المدن والبلاد المصرية بين الطبقات، إلا ان كثرة الثروة في أيدي التجار جعلتهم دائمًا مطمعًا لسلاطين المماليك فغالوا في فرض الرسوم عليهم كما أكثروا من مصادراتهم وهذا ما كان محل النزاع بين التجار والسلاطين.

رابعًا: طبقة الصنّاع والحرفيين

في عصر المماليك وجدت طائفة كبيرة من العمال والصناع وأصحاب المهن الخاضعة لنظام النقابات السائد بين أفراد كل حرفة، فأهل الحرفة الواحدة وأصحابها يكوّنون نقابة لها نظام ثابت وقوانين يحدد عددهم ومعاملتهم فيما بينهم بعضهم وبعض، وفيما بينهم وبين الجمهور، كما يكون لهم رئيس أو شيخ يرأسهم ويفض مشاكلهم ويرجعون إليه في كل ما يهمهم ولا يدخلون أحدًا في حرفتهم إلا أن يكون من أبنائهم حتى لا ينافسهم أحد في حرفتهم.

خامسًا: طبقة العوام

امتلأت المدن المصرية في العصر المملوكي بجمهور من الباعة والسوقة والسَقّائين والمكاريين والمعدمين أو أشباه المعدمين ويجتمع كل هؤلاء تحت مسمّى العوام

وقد عاش العوام في ضيق وفقر مقارنة بالمماليك وغيرهم من الطبقات العليا، حتى إن بعضهم كان في طرقات القاهرة بلا مأوى، كما أن كثيرًا منهم احترفوا مهنة الشحاذة، وقد دفعتهم الحاجة والعوز



والجوع إلى الأخذ بالفرص في السلب والنهب وقطع الطريق وخطف كل ما تصل إليه أيديهم، كما أنهم استفادوا أحيانًا من المنازعات بين أمراء المماليك حيث حاول بعض الأمراء أن يكتسب العوام إلى جانبه، ولكن العوام لم يقنعوا بأن يكونوا أداة في خدمة المنعمين عليهم وكانوا دائمي الثورة، حتى وصل بهم الأمر يومًا أن هددوا المحتسب حتى انقطع أيامًا في بيته لا يجرؤ على مغادرته خوفًا على نفسه من العوام، وكان إذا مات أحد الولاة الظالمين دفنته الدولة في مقابر النصارى خوفًا عليه من العامة أن تحرقه لظلمه وكره العوام له

ويضاف إلى ما سبق أن سلاطين المماليك جعلوا للفقراء نصيبًا من ثروتهم من باب التقوى على عادتهم مثل الوقف الذي أوقفه السلطان بيبرس لتغسيل فقراء المسلمين وتكفينهم ودفنهم، كما أوقف وقفًا آخر لشراء الخبز وتوزيعه على المعدمين، وفي أثناء المجاعات أمر بتوزيع الأموال بسخاء على المساكين والمعدمين.

سادسًا: أهل الذمة

اليهود والأقباط المسيحيون كانوا أقلية ذات أهمية في المجتمع المصري، شريحة قوية لا يستهان بها، وقد احتفظ الأقباط بنظمهم الخاصة في الحياة وكذلك احتفظوا بكنائسهم الكثيرة في القاهرة وغيرها، كما احتفظت الكنيسة القبطية بطقوسها القديمة والصلاة والأعياد والظهور برموزهم أمام العوام

أما اليهود فقد كانوا أقلية كذلك يشتغلون في مختلف الأعمال خصوصًا التجارة، واتساع ثروة مصر وتجارتها جلبت كثيرًا من يهود القسطنطينية وبغداد ودمشق وغيرها حتى أمسى لليهود سيطرة كبيرة على النشاط المصرفي والأعمال المالية والتجارية، وقد احتفظ اليهود في مصر بمعابدهم وعوائدهم ونظمهم والطرق الحياتية.



ولكن واجه أهل الذمة بعض الاضطهادات من آن لآخر لطمع السلاطين في أموالهم أو ليظهروا بمظهر المدافع عن الدين أمام المسلمين خصوصًا في أيام الحروب الصليبية.

ولكنهم لم يستسلموا على الدوام لبعض تلك الاضطهادات بل لجأوا إلى بعض الأعمال الاستفزازية والانتقامية مثل إحراق بعض أحياء القاهرة أو بعض مساجدها، أو بالسلم عن طريق الجزية أو الرشاوي لأصحاب السلطة، في العموم عاشت تلك الطبقة في رغد وحرية عن سابق الأزمنة فيما قبلها.

سابعًا: الفلّاحون والمزارعون

كان الفلاحون في العصر المملوكي هم السواد الأعظم في المجتمع المصري فقد كانوا يواجهون الإهمال والاشمئزاز والاضطهاد على كل صغيرة وكبيرة.

فمثلًا إذا تولى أحد أمراء المماليك المتشددين على بعض الأقاليم فإنه لا يسمح لأحد الفلاحين أن يلبس مئزرًا أسود أو يركب فرسًا أو يتقلد سيفًا، ويبدو أن هذه المعاملة أثّرت في نفوس أهل الريف حتى أصيبوا بالشعور بالنقص، وبالتالي فقد عاش الفلاح في عصر سلاطين المماليك مربوطًا إلى الأرض التي يفلحها ويفني حياته في خدمتها وليس له من خيراتها إلا القليل، لا يخرج من جلبابه المهترئ أبدًا، لأن أراضي مصر الزراعية ظلت نهبًا موزعًا بين سلاطين وأمراء المماليك، وفي بعض الأقاليم لم يكن للفلاح سوى العمل والسخرة ودفع الأموال في صمت.

ومما زاد حالهم سوءًا كثرة المغارم والمظالم والضرائب التي ظهرت لهم على يد الولاة والحكام فأخذوا منهم على غير العادة أضعافًا مضاعفة، كما أن الفلاحين لم يسلموا من أذى العربان قطاع



الطرق وبطشهم.

فكثيرًا ما أغار العربان على القرى وفعلوا بالفلاحين ما لا تفعله الخوارج من حرق للأراضي وسرقة واغتصاب، ولم يخفف عن الفلاحين مما سبق سوى أن يصادف مرور السلطان ببعض القرى للنزهة أو الصيد فيتقدم إليه الفلاحون بالشكوى من تعسف الولاة والحكام المباشرين وكذلك أذى العربان، وفي هذه الحالة يعزل السلطان الوالي أو المباشر ويعين بديلًا عنه ولكن هذا الوالي لا يلبث أن يستأنف سياسة الظلم والبطش بالفلاحين من بعد سابقيه، إلى جانب الأمراض والأوبئة التي آلت لهم وفتكت بأرواحهم، وذلك الذي كان يؤدي في النهاية بالفلاح بترك أرضه التي لا يملك فيها شيئًا والهجرة إلى المدينة.

ثامنًا: الأعراب

الأعراب في مصر بلغوا عددًا عظيمًا في العصر المملوكي وانتشروا في مختلف أنحاء البلاد وقد رفض الأعراب والبدو الخضوع لدولة المماليك ووصفوا السلطان أيبك بأنه «مملوك قد مسَّه الرق».

وقالوا عن المماليك بشكل عام أنهم عبيد وخوارج، ثم بلغ الأمر بهم أنهم اجتمعوا وأقاموا أحدهم حاكمًا في فترة من الفترات، ولكن المماليك قاتلوهم وهزموهم ومن ثم بدأ الصدام بين المماليك وطوائف العربان بصورة متقطعة طيلة العصر المملوكي بين كر وفر، ولذلك ظل العربان طوال العصر المملوكي عنوانًا للإخلال بالأمن والإضرار بالنظام والاعتداء على الأهالي الآمنين وقطع الطريق حتى الحجاج لم يسلموا من القتل والنهب في طريقهم لأداء الفريضة

وكانت الوسيلة الوحيدة لردع العربان وبطشهم من مهاجمة القرى والنجوع بل وحتى العاصمة وأطرافها هي تقريب شيوخهم إلى



السلطان وكسب ودهم، وهذا لم يكن بالردع الكافي ولكنه قد ضمن بعض الأمان في فترات بعينها.

تاسعًا وأخيرًا: الأقليات الأجنبية، اللاتين والروم

وقد اختار الأوربيون الإقامة بصفة خاصة في المدن التجارية والثغور على شاطئ البحر المتوسط، واتخذوا لهم فنادق يسكنون فيها، وقد تمتع هؤلاء التجار داخل فنادقهم بقسط وافر من الحرية؛ إذ سمحت لهم السلطات المماليكية بإحضار الخمور في سفنهم وإنزالها إلى فنادقهم، وقد اشترطوا عليهم بعض التعليمات والقيود وشدد عليهم في تنفيذها.

منها: إغلاق أبواب فنادقهم مساء كل يوم ووقت صلاة الجمعة، كذلك لم يسمح للأجانب داخل البلاد بارتداء ما يختارون من الملابس أو بركوب الخيل، وإنما فرض عليهم ركوب الحمير شأن أهل الذمة من المواطنين.

وبهذا تكوّن النسيج المملوكي المكوّن للمجتمع المصري في فترة المماليك الأتراك والبحرية.

الموت الأسود: الطاعون

لمن لا يعرف، فالطاعون كان هو مرض العصر، عدوى تأتي من الحشرات أو الفئران أو تعفن أجساد الموتى وغيرها من الأسباب، ولحظ محمد أبو السعادات العثر انتشر الطاعون بشكل موسع في نفس عام تنصيبه سلطانًا للبلاد.

ففي العام ١٤٩١م تعرضت مصر لأخطر لحظات تاريخها التي



هددت استقرارها لسنوات عدة.

بدأت العدوى من أواسط آسيا، وانتشرت بين البلدان عن الطريق التجاري ومن ثم انتقل إلى شبه جزيرة القرم ومنها إلى جنوة عن طريق البواخر ثم انتشر في أنحاء أوروبا وقيل إنه لما وصل إنجلترا حصد أرواح نصف مواطنيها وقتذاك.

أما في مصر فقد دخلت العدوى عن طريق البحر المتوسط تحديدًا في محافظة الإسكندرية، وبدأ في الانتشار بين المواطنين في البداية بشكل طفيف ثم بدأ في الانتشار بشكل واسع.

للعلم فالطاعون هو عدوى شديدة الانتشار ذكرها المؤرخون على أنها مادة سمّية ينتج عنها بثر وورم مؤلم، وأكثر ما يصيب المناطق الرخوة في جسم الإنسان، ويظهر عليه الاحمرار والاخضرار والاسوداد، ويبدأ خفقان القلب في الازدياد في كثير من الأحيان فضلًا عن التقيؤ والهذيان والحمى والقشعريرة ومن ثم الموت بعد عشرة أيام على الأكثر، وهو ثلاثة أنواع « الطاعون الدمّلي والرئوي والدبلي»، والأخير هو ما انتشر وقتذاك.

كان انتشار الطاعون حينئذ سبب من أسباب الأزمات الاقتصادية الناتجة عن الحروب والصراع على الحكم في عصر المماليك والذي خلّف بسببه إهمال الاقتصاد الداخلي شيئًا فشيئًا والذي سبّب جفاف وجدب وفيضانات وآفات زراعية، كما أن التأخر الطبي في ذلك الوقت لم يحد من انتشار الطاعون أيضًا، وكان سببًا رئيسيًا في انتشار الوباء بشكل سريع.

كما أن أزمات الغلاء كانت عاملًا مساعدًا هي أيضًا في ظل تجاهل الحكام والمنوّطين عن الحكم في تلك الأوقات والانشغال بالمؤامرات السياسية على العرش المملوكي.



الطاعون لم يكن قد انتشر في مصر لأول مرة وقتها، فقد انتشر قبلها أكثر من أربع وأربعين مرّة وخلف من الموتى الكثير، نذكر منها أول طاعون حدث في مصر في العصر المملوكي، وتفشى في القاهرة في سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م، وكان شديدًا نوعًا ما، أما الطاعون الثاني فقد عم مصر، في شهر صفر سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م واجتاح القاهرة، وامتد إلى أواخر محرم من السنة التالية، مخلفًا وفيات كثيرة، فماتت فيه أمم لا يحصيهم إلا الله، وبلغت أعداد الوفيات في القاهرة ومصر في اليوم الواحد ما يقرب من ١١٠٠٠ نسمة، وممن توفي مطعونًا في هذا الوباء المقرئ محمد بن أبي بكر بن علي شمس الدين الشطي الصالحي، والأمير أسندمر القليجي، والأمير قطليجا البتلتمرى والي القاهرة ومحتسبها محمد بن على بن المهتار.

كما تكرر حدوث الطاعون في القاهرة ٧٦١هـ/١٣٥٩م واستمر حتى سنة ٧٦٢ه/١٣٦٠م وخلف من الضحايا ما خلّف، كما يأتي طاعون سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م الذي فشا بالقاهرة في رمضان نموذجًا واضحًا للوباء الذي أثر فيها بشكل كبير، وزاد من سوء أوضاعها، وأودى بحياة عدد كبير من سكانها لاسيما اليهود الذين شكلوا نسبة كبيرة من المصابين والمتوفين بها، فقدر عدد الضحايا في شهر رمضان نحو١٠٠٠ نسمة وكان من بين وفيات في هذا الطاعون الأمير سيف الدين بلك الجمدار الناصري والأمير بكتوت القرماني، والقاضي عبد الرحيم بن محمد بن عبد الرحمن القزوينى والشيخ سراج الدين عمر الصفدي متولي مشيخة الخانقات الصوفية.

كما وقع الطاعون في مصر في سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٧م وانتشر في جميع أراضيها وصولًا إلى القاهرة، واستمر متفشيًا فيها أربعة أشهر، عانى السكان خلالها كثيرًا من شدة فتكه إذ بلغ عدد ضحاياه أكثر من

١٠٠ نسمة في اليوم الواحد.

كما انتشر وباء الطاعون مرة أخرى في مدينة القاهرة في سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م وأول من مات فيه من الأمراء المماليك هو الأمير أيدمر الشمسي، والأمير علي بن قشتمر، وأخذ هذا الوباء بالتزايد في شهر صفر وانتهى في أواخر شهر ربيع الأول، وأسفر عن ارتفاع كبير في الأسعار استمر حتى سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢.

وما إن دخلت سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م حتى انتشر الطاعون في القاهرة ونواحيها، وانشغل الناس بمعالجة مرضاهم ودفن أمواتهم مع ازدياد خشيتهم من الإصابة به، واستمر هذا الوباء يفتك بالقاهرة حتى سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م، مخلفًا خسائر بشرية كبيرة لا تعد ولا تحصى.

وفي رمضان سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م فشا الطاعون في القاهرة، واستمر حتى نهاية السنة موديًا بحياة الكثير من سكانها، وممن مات فيه من الأعيان شهاب الدين أحمد بن عبد الله العجمي الحنبلي.

وفي أواخر شهر ذي الحجة من سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م وقع الطاعون بمصر وتفشى بين السكان، وأصبحت القاهرة إحدى المدن الموبوءة، وكان أثره كبيرًا على الأطفال دون غيرهم، بسبب الارتفاع الملحوظ في درجات الحرارة التي تسببت في زيادة عدد الوفيات، فبلغت ١٢٠ متوفى في اليوم، ومن الأسباب الأخرى التي زادت من حدته هبوب رياح شديدة من الجهة الجنوبية واستمرارها لعدة أيام، فبلغ عدد الوفيات في القاهرة وحدها يوميًا ما بين ٢٠- ٣٠ نسمة من مختلف الفئات العمرية.

وازدادت رداءة المناخ مع حلول فصل الربيع، فبدلًا من اعتداله كما هو معتاد أصبح حارًا يابسًا ورياحه كلها جنوبية، مما أسهم في ازدياد انتشار الطاعون وارتفاع ضحاياه إلى ما يزيد على ١٠٠



نسمة، وأخذ الطاعون بالتزايد في بداية شهر صفر، إلا أنه بدأ بالتناقص في منتصفه، وذلك بسبب تحسن الطقس لاسيما بعد أن عمت الرطوبة فخففت من موجة الحر لمدة عشرين يومًا، إلا أنها لم تلبث أن ارتفعت مرة أخرى، فتزايد الطاعون؛ فتجاوزت أعداد الوفيات ١٢٠ نسمة في اليوم.

مما أثر سلبًا على الحالة الاقتصادية، فاضطربت الأسواق، وارتفعت أسعار البضائع المطلوبة كمادة مفيدة للموبوئين مثل البطيخ الصيفي.

بعد مرور أربع سنوات على تعافي القاهرة من الطاعون الذي ضربها، عاد إليها مرة أخرى في محرم سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م وأخذ بالتزايد شيئًا فشيئًا حتى بلغ ذروته في شهري صفر وربيع الأول، وبلغ عدد الوفيات ٨٠ نسمة يوميًا، وانتهى في ربيع الآخر من السنة ذاته.

وما إن دخل ربيع سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م على القاهرة حتى تفشى الطاعون فيها مخلفًا أعدادًا كبيرة من الوفيات بلغت١٠٠ نسمة يوميًا في منتصف صفر، ثم ازدادت إلى ٢٠٠ نسمة في آخره، ووصل الحال إلى درجة وفاة معظم أفراد العائلة الواحدة، وقدر عدد الوفيات في القاهرة وحدها مع بداية شهر ربيع الأول ٣٠٠ نسمة يوميًا، ثم ارتفعت إلى٥٠٠ نسمة في منتصفه، وربما وصل العدد إلى أكثر من ذلك لأن الإحصائيات كانت تعتمد على من ترد أسماؤهم إلى الديوان، ومن جملة من توفي في هذا الطاعون ابنتا الإمام ابن حجر العسقلاني اللتان أورد ذكرهما في سياق الحديث عن طاعون هذه السنة «وماتت ابنتاي عالية وفاطمة وبعض العيال».

كما أشير إلى أن فرصة نجاة المصابين بطاعون هذه السنة كانت ضئيلة جدًا، فكانوا يموتون خلال وقت قصير جدًا، وممن توفي في



هذا الطاعون بعض أمراء المماليك وأعيان القاهرة وعلمائها، منهم قاضي العسكر ومفتي دار العدل تقي الدين أبو بكر بن عثمان بن محمد بن الجيتي، وإبراهيم بن العز محمد بن أحمد بن أبي الفضل محمد النويري، والإمام أبو أحمد ظهيرة بن حسين بن علي بن أحمد المخزومي المكي.

لقد تسبب انتشار وباء الطاعون في سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م إلى حدوث أزمة غلاء نتجت عنها مجاعة في القاهرة وضواحيها، فسعى السلطان المؤيد جاهدًا من أجل اتخاذ التدابير اللازمة لإصلاح الوضع الاقتصادي

وفي سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م تفشى الطاعون بالإسكندرية ودمياط ووصل إلى القاهرة، إلا أنه كان فيها أخف وطأة من غيرها من المدن مقارنة بالطواعين الأخرى، فبلغت وفياته ٤٠ نسمة يوميًا.

لم يلبث وباء الطاعون أن عاد إلى مصر في شهر ربيع الأول سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م، وتفشى في القاهرة، مما أرعب السلطة والعامة في آن واحد، وبدأوا باتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة هذا الخطر الذي يهددهم جميعًا دون استثناء، فتمت دعوة الناس إلى الصيام والصلاة والدعاء وترك المعاصي، كما صلى السلطان وسبح ودعا بمعية الخليفة وقاضي القضاة، وذبح القرابين لله تعالى عسى أن يرفع الطاعون عنهم، ووزع أكثر من ٢٨٠٠٠ رغيف من الخبز ثم أخذ الطاعون بالتناقص تدريجيًا، فبلغ عدد الأموات في مستهل جمادى الأولى ٧٧ نسمة يوميًا حسبما تم إحصاؤه في الديوان بعد أن كان أضعافًا مضاعفة، كما أورد ابن تغري بردي إحصائية مفصلة بعدد الوفيات في القاهرة خلال خمسة وسبعين يومًا امتدت من منتصف شهر صفر إلى سلخ شهر ربيع الآخر، فبلغ مجموعها ٧٦٥٢ نسمة



منهم ١٠٦٥ رجلًا ٦٦٩ امرأة و٣٩٦٩ طفلًا و٥٤٤ من العبيد و١٣٦٩ من الإماء و٦٩ من النصارى و٣٢ من اليهود.

فضلًا عمن لم يرد اسمه الدواوين والسجلات الرسمية.

وصل وباء الطاعون إلى القاهرة في ٨ شعبان ٨٢٣هـ/١٤٢٠م بعد أن ظهر قبل ذلك في الإسكندرية وبلاد الصعيد، على الرغم من عدم وجود الظروف المناخية المؤدية إلى ظهوره، فمنسوب مياه النيل كان معتدلًا، ودرجة الحرارة كانت غير مرتفعة في صيف هذه السنة، واستمر حتى العام التالي، فارتفع عن القاهرة، إلا أنه كان أخف من طاعون السنة السابقة للطاعون السابق.

انتعشت مدينة القاهرة، وبعد مرور عشر سنوات، في ذي القعدة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م تفشى الطاعون بالمدن المصرية ثانية كالوجه البحري والإسكندرية، نتيجة لارتفاع درجات الحرارة عن الحد الطبيعي، مما كان سببًا في وفاة أعداد كبيرة، فضلًا عن الخسائر الكبيرة في الثروة الحيوانية في مدن مصر، واستمر حتى فصل الشتاء، حيث وصل إلى القاهرة، ويعد حدوثه في ذروة فصل الشتاء من الأمور النادرة، فبلغت وفيات القاهرة ١٢ نسمة يوميًا، ووصلت إلى ما يقرب من ٥٠ ضحية، وأخذت هذه النسبة بالارتفاع مع نهايات ربيع الآخر، فبلغت ١٠٠ نسمة، مما ادخل الذعر في قلوب السكان، فكرروا ما قاموا به في سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م من صيام ودعاء وصلاة وتقديم القرابين وترك المعاصي، وعلى الرغم من ذلك لم يخف الوباء، وأخذت أعداد الوفيات بالزيادة إلى أضعاف ما كانت عليه، فبلغت ٣٠٠ نسمة يوميًا، فضلًا عمن لم يرد اسمه إلى الديوان. ازدادت حدة الطاعون في شهر جمادى الأولى فبلغت وفيات القاهرة في الرابع من هذا الشهر ٢٠٠٠ نسمة، ومات في هذا الطاعون عدد كبير من



مماليك السلطان الأشرف برسباي، إذ وصلت إلى ٥٠ مملوكًا يوميًا.

وفي أخر شهر جمادى الأولى بلغ عدد من صلي عليه ٥٥٠ نسمة، وأحصيت الوفيات في جميع مصليات القاهرة، فبلغت ٢٢٤٦ نسمة، كما توفي من السودان ٣٠٠٠ سوداني، ونتيجة لكثرة الوفيات عز وجود حمالي الموتى وغاسليهم ومن يحفر القبور، مما اضطر السكان إلى القيام بالدفن الجماعي في حفرة واحدة.

عرف هذا الطاعون بشدة وطأته على سكان القاهرة، وكان من أكثر الطواعين التي وقعت فيها أضرار بالسكان في التاريخ المصري المملوكي، لذلك أطلق عليه تسمية الفناء العظيم

ساءت الأوضاع الاقتصادية في شهر جمادى الآخرة بسبب هذا الطاعون الذي خلف أزمة اقتصادية حادة زادت من وقعه، فبلغ عدد من صلي عليه بمصلاة باب النصر فقط في يوم واحد أكثر من ٨٠٠ نسمة، وفي ذات اليوم بلغ عدد من خرج من الأموات من سائر أبواب القاهرة١٢٣٠٠ نسمة، وبلغ عدة من صلي عليه بمصلاة باب النصر من الأموات في العشر الأوسط من جمادى الآخرة ١٥٣٥ وفية، ومثلها تقريبًا في مصلاة المؤمنين.

وفي يوم ١٨ جمادى الآخرة دخل فصل الربيع، وأخذ الطاعون يتناقص غير أنه فشا يومئذ في أعيان الناس وأكابرهم ومن له شهرة بعد أن شكل الأطفال أغلب ضحاياه.

ومما يدل على شدة هذا الطاعون تفشيه بين الحيوانات أيضًا، إذ لم يقتصر الوباء على البشر، فوجد في نهر النيل والبرك أعداد كبيرة من الأسماك والتماسيح الموتى طافية، فضلًا عما مات من الحيوانات البرية في بساتين القاهرة من الدجاج الظباء والذئاب وغيرها، فانشغل السلطان كثيرًا بأمر هذا الطاعون ومنحه الأولوية على غيره من الأمور، وسعى



جاهدًا لإيجاد مخرج من هذا المأزق، وأخذ يتشبث بأي علاج حتى وإن كان خرافيًا، إلا أن الطاعون أخذ بالتناقص مع دخول شهر رجب، وعلى الرغم من ذلك أخذ السلطان باستفتاء العلماء عن نازلة الطاعون هل يشرع الاجتماع فيها للدعاء، فاختلفوا في فتواهم، فأمر أن يبتهل كل واحد إلى الله تعالى في سره وأشاروا عليه بالتوبة ورفع المظالم.

وممن توفي في هذا الطاعون الأمير محمد الابن البكر وولي عهد السلطان برسباي في يوم الثلاثاء ٢٦ جمادى الأولى، والأمير يشبك الشقيق الأكبر للسلطان، فضلًا عن عدد كبير من الأعيان كمحتسب القاهرة صارم الدين إبراهيم بن ناصر الدين، وأبو المكارم إبراهيم بن أحمد الشاذلي، ونقيب الأشراف ومتولي كتابة السر أحمد بن علي بن إبراهيم الحسيني الدمشقي وصدر الدين أحمد بن محمود بن المعروف بابن العجمي الذي تولى ديوان الإنشاء والحسبة أكثر من مرّة، والقاضي تقي الدين يحيى بن محمد بن يوسف الكرماني البغدادي، وناصر بن محمد ناصر الدين البسطامي، ونظام الدين يحيى بن سيف الدين بن محمد السيرامي وهاجر خوند بنت منكلى بغا زوج برقوق وأمها خوند فاطمة بنت الأشرف شعبان بن حسين بن قلاوون وغيرهم، فضلًا عن عدد كبير من المماليك السلطانية وأمرائهم كالأمير برد بك السيفي أحد مقدمي الألوف بمصر ومقدم المماليك الأمير ياقوت الحبشي.

ضرب الطاعون مدينة القاهرة وفشا بين الحيوانات لاسيما الأبقار في شهر شعبان سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م ثم انتقل إلى السكان في أول شهر رمضان من السنة ذاتها، وبلغ عدد الأموات الذين وردت أسماؤهم إلى ديوان المواريث ١٨ نسمة، ثم أخذ عددهم يتزايد في كل يوم، لاسيما الأطفال والإماء والعبيد. ما أن دخل يوم الأربعاء الثالث



والعشرين من شهر رمضان حتى ازدادت شدة الطاعون وتزايد معه تخوف السلطان العزيز يوسف بن برسباي.

فسأل الفقهاء عن الذنوب التي يرتكبها الناس، وهل يعاقبهم الله بالطاعون، فقالوا نعم.

فأمر بمنع كل أنواع المعاصي من زنا وشرب الخمر وخروج النساء إلى الأسواق، كما اتخذ السلطان إجراء آخر في السادس والعشرين من رمضان، فأفرج عن جميع المسجونين، لقد أثرت شدة هذا الطاعون على الحياة اليومية في مدينة القاهرة بكل جوانبها، فأخذت الأوضاع الصحية والمعيشية في المدينة تسير نحو الأسوأ يومًا بعد آخر، وممن توفي في هذا الطاعون أحمد بن محمد بن جبريل الأنصاري السعدي القاهري، ومحتسب القاهرة دولات خجا، وازدادت أعداد الموتى فبلغ عدد من صلي عليه بمصلاة باب النصر في وسط القاهرة فقط في اليوم ٤٠٠ نسمة، وهي واحدة من ١١ مصلاة بالقاهرة وظواهرها، إلا انه اخذ بالتناقص شيئًا فشيئًا مع دخول شهر ذي الحجة من السنة ذاتها

في سنة ٨٤٨هـ/١٤٤٤م ظهر الطاعون ثانية بمصر، واخذ بالانتشار حتى دخل القاهرة في أول شهر محرم، وكان في تزايد يومي حتى بلغ شدته في صفر، وبلغ عدد ضحاياه ما يزيد على ٥٠٠ قتيل في اليوم الواحد إلا أن وطأته لم تلبث أن خفت مع دخول شهر ربيع الأول، حيث بدأ يتناقص من القاهرة ويتزايد بضواحيها.

وفي أول صفر ٨٥٢هـ/١٤٤٨م تفشى الطاعون مرة أخرى بمصر، وبلغ عدد ضحاياه أكثر من ١٠٠٠ نسمة تقريبًا، وممن توفي فيه محمد وأحمد ولدي السلطان الظاهر جقمق وشقيقتهما التساعية وشقيقتهما الأخرى خوند فاطمة ابنة السلطان الخماسية وأخت السلطان



وزوجته، ومجموعة من الأعيان مثل بختك الناصري أحد أمراء العشرات والأمير العلاء الكرماني والشريف حسن بن علي المعزول عن نقابة الأشراف والبرهان إبراهيم بن ظهير ناظر الإسطبل، فضلًا عن جماعة من الأعيان كانت أحدهم ابنة الخليفة المستكفي بالله سليمان والأمير الناصري محمد بن طوغان الدوادار وخازندار الكمال ابن البارزي، والأمير جانم الظاهري جقمق.

ما أن دخل شهر ربيع الآخر سنة ٨٦٤ /١٤٥٩م حتى بدأ الطاعون ينتشر ثانية في بلدة بلبيس وسرياقوس من ضواحي القاهرة، فتخوف السكان من تفشي الطاعون في القاهرة لاسيما أنهم كانوا يعانون من ارتفاع الأسعار وظلم المماليك الأجلاب وانعدام الأمن، بسبب جرائم السرقة والسلب وقطع الطرق، فضلًا عن مهاجمة العربان للمدينة فيتوقف جلب الغلال يومًا بعد يوم.

وبدأت ضحايا الطاعون بالازدياد في أرياف القاهرة، فبلغ عدد من ورد اسمه إلى الديوان في العشر الأواخر من شهر ربيع الآخر خمسة وثلاثين ضحية.

ومع مستهل جمادى الأولى أخذت أعداد الوفيات بالتزايد، فبلغ من يرد اسمه إلى الديوان٦٠ نسمة، ثم وصل إلى ١٢٠ نسمة ما بين رجل وامرأة وصبي.

ومما انفرد به هذا الطاعون عن غيره أنه كان ينقص في اليوم نقصًا قليلًا ثم يأخذ بالازدياد في اليوم التالي أكثر مما كان عليه، واستمر الحال على هذا المنوال حتى انتهى من القاهرة نهائيًا.

ففي ١٧ جمادى الأولى بلغ عدد الضحايا ١٧٠ نسمة يوميًا ممن ورد اسمه إلى الديوان فبلغ عدد من صلي عليه بمصلات باب النصر وحدها ١٠٠ نسمة، وعندما اشتدت المحنة كلف الأمير زين الدين



الإستادار جماعة من الناس بإحصاء من صلي عليه في جميع مصلوات القاهرة وظواهرها فبلغ عددهم ٦٠٠ قتيل في اليوم الواحد توفي في طاعون هذه السنة عدد من الشخصيات المعروفة كناظر الديوان شمس الدين منصور بن الصفي، والقاضي زين الدين عبدالرحيم العيني، وحاجب الحجاب الأمير يونس العلائي، ورأس نوبة الأمير يشبك الأشقر الأشرفي.

كما بلغ عدد الأموات في هذا اليوم ممن صلي عليه في مصلى واحد حسبما ورد إلى الديوان ٢٣٥ نسمة، وأما مجموع من صلي عليه في مصلوات القاهرة كلها فبلغ نحو ١١٥٣ نسمة، ومما زاد الطين بلة تزامن هذا الطاعون مع أزمة اقتصادية أدت إلى ارتفاع مفرط في الأسعار بسبب ظلم المماليك الأجلاب، وازدادت شدة الطاعون في القاهرة وظواهرها مع بداية شهر جمادى الآخرة.

وكان معظم الأموات من الأطفال والعبيد والجواري، واختلف الناس في عدد الوفيات، فبالغوا فيها لخشيتهم على أنفسهم فمنهم من قال بلغ عدد من يموت في اليوم٤٠٠٠ نسمة، ومنهم من قال٣٥٠٠ قتيل، كما اشتهر هذا الطاعون عن غيره بغرابة أمره، فقلما يسلم الموبوء من الموت إلى درجة أن بعضهم قال فيه «من كل مائة مريض يسلم واحد فأنكر ذلك غيره وقال ولا كل ألف مبالغة».

كما كان لهذا الطاعون أثره على المماليك السلطانية، إذ توفي في شهر جمادى الآخرة عدد كبير منهم بلغ ٦٣٠ نسمة، إذ بلغت أعداد وفياتهم في اليوم الرابع عشر من هذا الشهر ٧٥ نسمة من بينهم ٣٥ أميرًا. أما من توفي بهذا الطاعون من المماليك الإينالية فقط فبلغ ١٤٠٠ مملوك.

في حين بلغ عدد الضحايا من العامة ٤٠٠٠ نسمة في اثنتي



عشرة مصلاة.

أخذ الطاعون يخف شيئًا فشيئًا من القاهرة وظواهرها في العشرة الأخيرة من رجب، وقد رافق ذلك انخفاض الأسعار نتيجة لزيادة عرض السلع والبضائع المحتكرة كالشعير والتبن وغيرها مما خفف من وطأة الوباء، فبلغ عدد من صلي عليه في باب النصر ٢٥ نسمة، وبمصلاة البياطرة ٢٣ نسمة، وبالجامع الأزهر خمس ضحايا فقط وبمصلاة المؤمني ٣٥ نسمة، بعد أن كان من يرد إليها بالمئات.

ومع دخول شعبان خف الطاعون كليًا من القاهرة وجميع الديار المصرية.

ومع بداية شهر رمضان سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م ضربت مصر أزمة اقتصادية، أدت إلى موجة غلاء شديدة، نتج عنها تفشي وباء الطاعون فيها، وكانت القاهرة إحدى مدنها المنكوبة إذ وصل عدد ضحاياه ما بين ٥٠٠٠ نسمة في اليوم ومعظمهم من المماليك والجواري والعبيد والأطفال، إلا أنه أخذ بالتناقص في العشرة الثانية من رمضان.

وممن توفي فيه ابنة أحمد بن السلطان برسباي وأمها وخالتها، والأمير يونس العلائي الناصري فرج، والفقيه محمد بن عبد الرحيم بن علي أبو الخير العقبي القاهري الشافعي، كما توفيت فيه ابنة السلطان الأشرف قايتباي التي لم تتجاوز الرابعة من عمرها، إلا أن الطاعون خف في شهر شوال حتى تلاشى، فوصل عدد من صلي عليه في مصلاة باب النصر ٣٨ نسمة، وفي مصلاة المؤمني ١٧ قتيلا فقط.

كما نرى فقد ألمت الأزمات السياسية بالمجتمع المصري مخلّفة الكثير من العدوات الطاعونية التي آثرت على المجتمع المصري والشامي في مختلف المجالات، فخلّفت الكثير من الضحايا والأزمات



المجتمعية التي كادت تقضي على المجتمع ككل.

كانت آخر المصائب التي ضربت مصر وقتها هي عدوى الموت الأسود التي أصابت القاهرة في العام ١٤٩١م في أواخر عهد قايتباي وأول عهد ابنه الناصر محمد أبو السعادات.

ففي يوم واحد خرجت من الإسكندرية سبعمائة جنازة وأغلقت الأسواق والأشغال وعم الوباء دمنهور وكل البحيرة ومنطقة البرلس حيث تعطل الصيد في بحيراتها بسبب موت الصيادين ومات الفلاحون وانضرت الزراعة وماتت المواشي وأغلقت الأسواق في دمياط ثم انتقل الوباء إلى القاهرة وبلغ عدد الموتى في اليوم الواحد ثلاثمائة شخص.

وبعدها زاد انتشار الموت الأسود في القاهرة ارتفع عدد الموتى إلى ألف متوفى ١٠٠٠ في اليوم الواحد ثم زاد الوباء فأصبح من الصعوبة حصر أعداد الموتى في اليوم الواحد حينذاك

فكان يخرج من القاهرة كل يوم ما يزيد على ٢٠ ألف جنازة وبلغ عدد من ماتوا بين شهري شعبان وشهر رمضان نحو ٩٠٠ ألف متوفى.

وامتلأت الأماكن بالصياح فلا نجد بيتًا إلا وفيه صيحة ولا تمر بشارع إلا وترى فيه عدة أموات وفي يوم الجمعة بعد الصلاة على الأموات في جامع الحاكم صفّت التوابيت والنعوش اثنين وراء اثنين من باب مقصورة الخطابة إلى باب الجامع ووقف الإمام على العقبة والناس خارج الجامع

وكان يدفن في الحفرة ٣٠ أو ٤٠ متوفى

في حارة برجوان على سبيل المثال كان بها اثنان وأربعون بيتًا فارغًا بسبب موت سكانها كلها ويقال إنه في يوم واحد مات



عشرون ألف شخص ويذكر أنه بسبب كثرة الأموات انعدمت النعوش فأصبح يتم حمل الأموات على أقفاص وألواح خشبية وامتلأت المقابر وتوقفت الأفراح والحفلات والغناء وامتلأت الشوارع والميادين بالجثث وخليت طباق القلعة من المماليك السلطانية بسبب موتهم وعندما جاء وقت الحصاد لم يكن هناك عدد كاف من الفلاحين لموسم الحصاد فعكفت الدولة بتوفير بعض الجنود للقيام بعملية الحصاد وأعلنت الدولة أنه من يشارك في الحصاد فله نصف ما حصد وانعدمت الصنايع وقلت الأسعار وانخفضت قيمة النقود للصفر، وكان هذا في عهد أبو السعادات الذي كان مشغولًا باللهو وقتها.

وبعد كل هذه الأمراض والفقر والوفيات، انقسمت الدولة التي طالما أرعبت الأعداء بقوة جيشها العرمرم الذي قضى يومًا ما على خطر المغول الأكثر إرعابًا في التاريخ، وقضى على الخطر الصليبي عن القدس والقاهرة وسائر بلاد الشام.

كانت هذه هي القاسمة الأولى، لتتحول الدولة القوية المتماسكة إلى شبه دولة تتكالب عليها الأخطار من كل جانب، عدو داخلي وخارجي، مؤامرات تحاك بلا رادع، ملوك مخوخة تتحكم في قراراتها شرذمة من الأمراء وأصحاب النفوذ، وبواقي شعب يقتات على القمامة ومخلفات المماليك ولا يقوى إلا على السخرية من حاكميهم فقط.

آخر السلاطين العظام:



الأشرف قايتباي

كانت سلطنة المماليك سلطنة عظيمة، وكأي كيان عظيم يظهر كل فترة في تاريخ العالم، فإن له فترات من الصعود العظيمة والقوة، وفترات من التخاذل والضعف.

فكانت فترة المماليك الأولى من الفترات الأكثر قوة في تاريخ الخلافة الإسلامية كلها، والتي كان فيها انتصار المماليك في شتى الحروب التي أجبروا على خوضها ضد الصليبيين والمغول ثم العثمانيين والصفويين على حدود السلطنة.

فحكى وتحاكى في سيرتهم كل من عاصرهم، وكان في عهودهم سلاطين حكمت بيد من حديد، على سبيل المثال الظاهر بيبرس وقلاوون وقايتباي، ولكن لكل امبراطورية سقطة، والبشر يظلون بشرًا كيفما شاءوا.

فكما هو الحال في جميع الوسائط البشرية، فالطمع دائمًا ما يكون هو الشذرة التي توقد الحريق.

يمر الزمن، وتمر معه جميع اللحظات، القوة فيها والضعف، حتى نصل إلى نقطة نتساءل فيها، كيف وصلنا إلى ما وصلنا إليه؟

وهي الفترة التي يسمونها «البكاء على الأطلال».

كيف بدأ التهاوي؟

في العام ١٤٦٨م تولى الحكم واحد من أكثر المماليك قوة في عهد المماليك الشركسية أو البرجية، وهو الملك الأشرف قايتباي.

كان قايتباي مملوكًا اشتراه الأشرف برسباي في القاهرة من الخوجة محمود بمبلغ ٢٥ دينارًا، ثم تربى في كنفه حتى اشتراه



السلطان المملوكي الظاهر جقمق وأعتقه والتمس فيه الإخلاص والفطنة، فاستخدمه في الجيش

تصاعد نجم قايتباي رويدًا رويدًا، فكان يترقّى درجات تلو الدرجات لكفاءته وشجاعته في الجيش المملوكي إلى أن صار أتابك العسكر في عهد الظاهر تمربغا الرومي وهي من أرفع الرتب العسكرية وقتها.

ثم في نفس السنة التي وصل فيها قايتباي لتلك الوظيفة، تم خلع الظاهر تمربغا اليوناني بعد مؤامرة على الانقلاب عليه، ولك يكن تمربغا قد مرّ على توليه السلطنة إلا شهران بالعدد.

فبايع أمراء المماليك الأتابك قايتباي على السلطنة، وكانت من أقوى فترات السلطنة المملوكية في عصرها بالكامل.

كان قايتباي ذا نزعة علمية، كثير الاطلاع والقراءة، كما كان ذا نزعة صوفية فتعلّم الزهد، والاستكفاء والسمو الروحي، فكان زاهدًا متقشفًا على نفسه، حتى أنه قد شاعت شائعة عن مدى بخل قايتباي فتناول الحرافيش النكات حوله وحول بخله الشديد.

كان فارسًا شجاعًا فقد كان صاحب الجيش لفترة من الزمن، يتسم بالعقل والحكمة، فكان إذا غضب هدأ روعه ولم تسيطر عليه غضبة، كثير النشاط والعزم والإقدام كما وصفه مؤرخو عصره.

حكم قايتباي ثمانية عشر عامًا من الحديد والنار، وفي عهده قامت الحروب المهددة للسلطنة المملوكية من الخارج على حدودها، أشهرها محاولة الدولة العثمانية أواخر القرن الخامس عشر، والذي حاولوا فيه فرض السيطرة على حلب بالكامل والتي كانت تحت الحكم المملوكي وقتها.

حينها أنفق قايتباي على الجيش لمقاومة الغزو العثماني ما لا يعد



ولا يحصى، صرف من أموال الدولة ومن أمواله الخاصة على الجيش المملوكي لمقاومة العثمانلية الكثير حتى حكى وتحاكى المؤرخون عن بزخه في تجهيز الجيش.

أما عنه شخصيًا فبعكس أسلوبه في الإنفاق على الجيش كان متقشّفًا على نفسه وعلى من حوله، زاهدًا.

بالرغم من اهتمامه بالجيش بوجه عام نظرًا لمتطلبات الجهاد الحربي ضد الغزو الخارجي، إلا أنه لم يهمل الأمور الداخلية للدولة فقد صعدت في عهده أعمال الفنون المعمارية، قلعة قايتباى بمدينة الإسكندرية، جامع تمراز، جامع أزبك بن تتش، قصر يشبك، مدرسة ومقبرة قايتباى، مدرسة قايتباى في المدينة، وكالة قايتباى بجوار الأزهر، سبيل قايتباى،المدرسة الأشرفية (المسجد الأقصى)، وكالة قايتباى باب النصر والسروجية، قبة قايتباى الفضوية، قصر ومكان قايتباى، أحياء الأبواب، مدرسة الروضة، جامع جانم، مدرسة أبوبكر بن مزهر، جامع قجماس، مدرسة أزبك اليوسفى، مسجد قايتباى بمدينة الفيوم.

كما قام ببناء قلعة السلطان قايتباى في مدينة رشيد التي وجد بالقرب من أسوارها حجر رشيد.

من أعمال السلطان قايتباى أيضًا مدرسة بقلعة الكبش وكذلك حوض سقى الدواب في قلعه الكبش. من اعماله أيضًا التي لا تنسى وبعد الحريق الأول للمسجد النبوي تمت عدة عمارات وإصلاحات للمسجد، كان آخرها عمارة السلطان المملوكي الأشرف قايتباي سنة ٨٨١هـ. وفي سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م حصل الحريق الثاني للمسجد فأمر قايتباي بإعاده بناء المسجد على النفقة الشخصية.

أما عن صرفه على الجيش فقام بتسليح الجيش والعمل على ازدياد



أعدادهم حتى يتسنّى له التصدي للخطر العثماني الذي هدد استقرار السلطنة في مصر والشام، وصرف أكثر من مائة ألف على تسليح الجيش «وهو مبلغ ضخم جدًا وقتها» حتى يتصدى للغزو، وبالفعل استطاع أن يصد الغزو العثماني ويعيد سيطرته على حلب واستعادتها للحكم المملوكي بعد عدة انتصارات مملوكية.

كان لصدى الانتصارات والمصاريف العسكرية التي قام بها قايتباي وقتها وقع على باقي البقاع الإسلامية القريبة منها والبعيدة، حتى أن في تلك الفترة كانت الصراعات الأوروبية الأندلسية على أشدها، فعندما سمع صاحب الأندلس أو الخليفة قبل الأخير لغرناطة أبو محمد الصغير ما حققه قايتباي من انتصارات، أرسل له طلبًا للعون العسكري في صد هجمات الفرنج عن غرناطة، وهو ما قاد قايتباي وقتها الذي كان يحارب في أكثر من جهة إلى الابتعاد عن فكرة العون العسكري لغرناطة، واكتفى بالتهديد والوعيد لقساوسة بيت المقدس من الفرنج تهديدات قاسية للكف عن محاولات إسقاط غرناطة، وهو ما أدى في النهاية لسقوط غرناطة وضياعها من أيدي المسلمين.

عاش قايتباي على عرش المماليك ثمانية عشر عامًا من الازدهار والمقاومة والحروب، ظل قايتباي مسيطرًا على دولة المماليك الممتدة من مصر إلى الشام والحجاز وأجزاء من اليمن والأناضول ولم يقدر أحد على منازعته الأمر، حتى مات في ٢٧ من ذي القعدة سنة ٩٠١هـ.

ومع وفاة السلطان قايتباي، انتهى عصر الرخاء الاقتصادي والسياسي لدولة المماليك لتبدأ عصور من التقلبات والنكبات التي لم تنته أبدًا، صراعات تلو الصراعات ومذابح وأوبئة وفقر، هو ما كان



يتنظر الدولة المملوكية الشركسية من بعد وفاة قايتباي.

كان قايتباي حاكمًا عظيمًا، ولكنه كان ذا وجه مظلم لم يلاحظه أحد من قبل، ألا وهو قسوته على أبنائه وخاصة ولده محمد، أو الناصر محمد وهو ما سيؤثر على الحكم المملوكي بعدها.

التدهور: الناصر محمد أبو السعادات



باب السلسلة «العزب»

كان لقايتباي ولد اسمه «محمد» وكان هو الوريث الشرعي لوالده قايتباي العظيم، ولما كان قايتباي متخوفًا من المؤامرات التي تحاك عليه شخصيًا وعلى حكمه وكرسيه، فقد كان لهذا عامل مؤثر على تعامله مع ولده الوحيد محمد، الذي لمس فيه رعونة في طفولته والذي كان بدوره يخاف من لحظة تقلده الحكم فيتكالب عليه الطامعون في الحكم.



منذ اللحظة الأولى لولادة محمد بن قايتباي «الناصر محمد أبو السعادات» قرر والده قايتباي أن يحبسه في القلعة، منع عنه الخروج مطلقًا ربما لخوفه عليه أو لسبب لا يدريه إلا قايتباي نفسه، هو فقط قرر حبسه ومنع عنه الخروج والاختلاط، حتى أنه كان لا يرى النيل الذي هو يقبع أمام نوافذ القلعة نفسها.

كان يعامله والده بقسوة مبالغ فيها، يعاقبه على أتفه الأسباب بالضرب المبرح والإهانة، ضرب بسبب وبدون، ولم يكن العقاب يقتصر على الضرب فقط بل إنه تفنن في قتله نفسيًا، ولم يكن يدري أحد من المقربين ما السبب في كل هذا.

ما انفكّ الحبس مستمرًا، منذ ولادته المظلمة تلا وفاة والده الغادرة، حبيسًا يرجى التحرر، يرى الشمس حينًا خلف أسوار القلعة، يصبح بكفّ والده وينام بكفّ آخر.

حينما بلغ محمد أبو السعادات التاسعة من عمره القصير، قام بفعلة بسيطة لا تستحق العقاب، ولكن هيهات، كيف لوالده أن يتركها تمر مرور الكرام.

غضب عليه قايتباي حينها غضب ملك الموت، تطاير الشرر من عينيه كالجان الماردين، ثم إنه همّ بعقابه.

أمر الحرّاس بإمساكه وتكبيله، ثم إنه قد أمرهم بإلباسه ملابس بالية متّسخة رغمًا عنه وهو أمير وولي عهد، ثم إنه أمر بجرجرته إلى حيث يقبع المماليك الجلبان وهم أحقر طبقات المماليك «الخدّام والمغضوب عليهم» ليعيش معهم، يخدم معهم، يمسح سلالم القصر بملابسه البالية، ثم يأكل من مأكلهم ويا ليته يأكل معهم، بل أمر والده بعزله عنهم وقت الغذاء والتسامر، فكان يجلس وحده على بلاط الحجرة يأكل بقايا الطعام، وكان لا يزال برعم لم يكتمل نموّه بعد، أما



إذا فاض به وخالف أوامر والده، ضرب ضربًا مبرحًا حتى يترجّى قدما والده بلا نتيجة تذكر.

حتى أن الأمير المملوكي «يزبك» توسّط له عند والده قايتباي حتى يعفو عنه حينما رأى بالصدفة حاله وما وصل إليه الأمير محمد، وهو كان على خلاف مع وراثته للحكم منذ البداية، رقّ قلبه حين رأى حاله وهو طفل صغير يلملم جراحه بلسانه كالدواب.

يومًا بعد يوم كان الناصر محمد يكبر، ويومًا بعد يوم كانت نفسيته تتعقّد أكثر فأكثر، يكره المماليك والأمراء ووالده شيئًا فشيئًا، لماذا يتم ضربه وعقابه وحبسه وهو لم يفعل أي شيء؟

حتى حينما سار مراهقًا على مشارف الشباب، كان الأمراء يترقّون ويتدرجون في المناصب والألقاب والدرجات، إلا محمد، فقد حرمه والده من أقل درجات الأمارة وهي «أمير عشرة».

شاخ قايتباي وصار في عمر الثمانين، وقد صار كهلًا لا يقوى على مجرّد التفكير

فاقترح عليه الأتابك «تمراز» بأن يتنحى عن السلطنة لابنه محمد.

ولكن قايتباي آثر على نفسه الرد وظل ساكنًا لا يتكلم، عند ذلك الحد قرر الأتابك تمراز أن يتصرف بمفرده وأخذ محمد الذي كان يبلغ من العمر الرابعة عشر عامًا نحو باب يسمّى «باب السلسلة»، وهناك أجلسه على عرش السلطنة وانتظر رفيقه الأمير «آقبردي» لكي تتم مراسم التنصيب.

ولكنهم فوجئوا بهجوم عسكر من المماليك عليهم بقياده قائد يسمّى «قانصوه خمسمائة» وكرنباي الأحمر والذي هجم عليهم هجومًا عسكريًا شديدًا ظنًا منه أنهم يريدون الانقلاب على قايتباي وتنصيب



تمراز سلطانًا على البلاد.

أمسك قانصوه خمسمائة بتمراز وكبّله جيدًا ثم أمر بحبسه في برج تابع لباب السلسلة، ورفض الاستماع إليه مطلقًا، ثم أشرف على ترحيله إلى الإسكندرية بنفسه.

بات قانصوه خمسمائة بين زمرته عند باب السلسلة يفكرون فيما آلت إليه الأمور حتى تلك اللحظة، وأنه عليهم تنصيب وريث سريعًا حتى تهدأ الأمور ويتسنى لهم الاستمرار في أعمالهم.

ظلوا طوال الليل يتشاورون فيمن هو الأجدر بالسلطنة، فاتفقوا على تنصيب «الناصر محمد» هو نفسه كما كان يريد تمراز.

في اليوم التالي بعثوا لمجيء الخليفة العباسي المتوكل على الله أبو العز عبد العزيز والقضاة الأربعة للمذاهب الأربعة، ثم أخطروهم بضرورة خلع السلطان قايتباي حيث إنه في النزع الأخير.

فاتفقوا، وخلعوا الأشرف قايتباي ونصّبوا محمد على السلطنة، بوصاية من قانصوه خمسمائة الذي تم تعيينه أتابك للعسكر.

ولقبوا محمد بالناصر أبو السعادات.

لم يكن قايتباي يدري بما يدور في السلطنة وهو ينازع في سريره لا وعي له، وربما لو كان على دراية بما يجري لرفض قايتباي تلك الفعلة بل وأشرف على اعتقال كل من قام بالعمل عليها.

ولكنه لحسن حظ الأمراء فقد مات الأشرف قايتباي في عصر نفس اليوم السابع من أغسطس للعام ١٤٩٦م.

محمد لم يكن ابن زوجة قايتباي الرسمية، بل كان ابن محظية من محظيات قايتباي تسمّى «أصل باي» وهو كان ولدًا غير مرغوب فيه، فربما لهذا كان قايتباي يكرهه.

مات قايتباي أخيرًا، وتحرر محمد من العذاب والسجن الذي لاقاه



على يد والده بلا سبب، وتم تنصيبه سلطانًا على سلطنة المماليك في العام ١٤٩٦م.

قبل ذلك العام بثلاثة أعوام فقط، حدثت مصيبة هزّت أرجاء مصر، ألا وهي انتشار الطاعون في أرجاء البلاد كما ذكرنا مسبقًا.

الناصر محمد أبو السعادات كان يبلغ من العمر آن ذاك السابعة عشر عامًا فقط، وقد استلم مقاليد الحكم في فترة عصيبة فخارج القصر كان يقطن كل طامع في الحكم وكل متصيّد للأخطاء.

وفي الخارج الرعايا يصرخون من الموت الأسود والمجاعة التي ألمت بهم وازدياد الأسعار الذي لحق الناجين من الموت، أما عن محمد نفسه فكان غير سوي بالمرة

كان منشغلًا بتسلية أوقات فراغه وقت جلوسه على العرش، وكان يعوّض طفولته التي كانت مليئة بالحبس والضرب.

فانشغل محمد في أمور عدّة، فمثلًا كان يجالس ويصاحب المجرمين والمطلوبين والحرافيش، يدخّن معهم الحشيش ويشرب الخمر معهم، يجالسهم عوضًا عن مجالسة الأمراء الأمر الذي قاد الأمراء في النهاية إلى كرهه ومقاطعته.

وهو لم يكن أسعد من أن يتقبّل مثل هذا القرار، فقد كان كارهًا حاقدًا على الأمراء وكبار رجال الدولة ويراهم مصطنعين.

كان الناصر محمد ساديًا يعشق قتل وتعذيب المجرمين بيده.

حيث إنه كان يتصيّد المجرمين بنفسه، ثم إنه يتفنن في تعذيبهم على أتفه الأسباب ومن ثم يأمر بإعدامهم.

لم يتوقف ذلك السلطان المراهق عند تلك الفعلات.

حيث إنه كان طفلًا كبيرًا يتسلى بما في يديه، طفل لم يعش طفولته كما آن له أن يعيشها بل إنه قد تم إجباره على حياة لم يردها مطلقًا.



فاتجه لا إراديًا إلى تلك الفعلات التي تزينت بالخروج عن القانون والسادية واللهو فقط، فقد تناسى الناصر محمد مهمته الأساسية ألا وهي إدارة شئون السلطنة لينصرف إلى اللهو والجريمة.

كان الناصر محمد على عادته يخرج متخفيًا ليلًا على صهوة جواده متجاوزًا أسوار القلعة، ليجالس الحرافيش بالخارج وقطاع الطرق، بل إنه يشاطرهم جرائمهم ويقوم بالهجوم على القوافل والسائرين ليلًا، يخطف ويسرق وربما يغتصب أيضًا، وحينما يعود منتشيًا من الخمر ومن مخالفة القانون فيجد من يلومه على أفعاله تلك، كان ينهره تمامًا، حتى ابتعد عنه الأمراء شيئًا فشيئًا، أنصار والده وأنصاره الشخصيون وحتى مماليكه انصرفوا عنه حتى صار محمد وحده تمامًا بدون أي ساند أو صديق.

وحيدًا يفعل ما يحلو له، هذه هي حياته في القصر وخارجه.

ربما كان تمرده هذا مبررًا فقد عانى من طفولة صعبة، كما أن تلك الفترة لم تكن بتلك الظلمة فقد كانت أولى فترات ولاية الناصر محمد عبارة عن إقطاعات وإكراميات ومكافآت وإلغاء لبعض الضرائب في ظل السلطنة الجديدة أو الولاية الجديدة، ولكن لم تكن كافية أبدًا.

مما استدعى وقتها للتدخل لوقف مثل تلك الفعلات المشينة في حق الأمراء المماليك الأتراك.

كان الناصر محمد قد ازداد في رعونته وأفعاله لا يوقفه أحد، اضطرت الأستادار «كرتباي الأحمر» تعيين أربعة من الخاصكية «أو المماليك المقربون» لملاحقة محمد وملازمته لمنعه من التصرف بطيش، بل إنه زاد في طيشه لدرجة اضطرته يقبل التحدي ويزيد من تصرفاته غير المقبولة وقتها، ففشلت خطة كرتباي الأحمر، واضطر



الأتابك « قانصوه خمسمائة» للتدخل.

في ظل كل تلك الظروف المحيطة، كان قانصوه خمسمائة هو الوصي على عرش السلطنة الرسمي، وكان محبوبًا بين المصريين لفروسيته وإقدامه على الخير.

ولكن أميرًا آخر طمع في الوصاية وحاول نزعها من قانصوه خمسمائة بالمكيدة.

كان هذا الأمير أو الداودار هو «أقبردي» والذي لم يكن ذا شعبية تذكر لا بين المماليك في القصر ولا بين المصريين خارج أسوار القلعة، وكان يطمع في الوصاية، فاستعان بأهل الشام الذي حاول استخدامهم للإطاحة بقانصوه خمسمائة وقتله، وعلى أثر ذلك اضطر قانصوه للهرب خارج السلطنة، ليترك السلطان محمد وحده بلا رفيق ولا ساند ولا داعم واحد.

ولكن لحسن حظ قانصوه خمسمائة فقد تصدى محبوه وأنصاره لانقلاب أقبردي وانتصروا عليه مما اضطره للهرب هو أيضًا، وساءت أحوال السلطنة بعد هروب الاثنين.

ولكن قانصوه خمسمائة استطاع أن يعود مجددًا ليقضي على رؤوس وزعماء الانقلاب الذين عاونوا أقبردي في الانقلاب، ثم إنه قرر إقصاء محمد أبو السعادات وتنصيب نفسه سلطانًا للبلاد مكانه بعدما أفسد محمد كل شيء.

وعليه، عيّن قانصوه نفسه سلطانًا للبلاد وأطلق على نفسه لقب «الأشرف أبو النصر» تيمنًا بأستاذه «الأشرف قايتباي».

وكان يظن أنه بهذه الفعلة سيهدأ الرأي العام وتستقر الأمور ويكون هو سلطانًا بمساعدة محبة المصريين والشوام له، ولكن ما حدث بعد ذلك يشكّل النكبة الثالثة للمماليك التي ستدق المسمار الأول



في نعش سلطنة المماليك.

حينما تولى قانصوه خمسمائة العرش بعدما نصَب نفسه على السلطنة، وذلك في العام ١٤٩٧م، في أوّل يوم في تنصيبه سلطانًا على البلاد، كانت أول قراراته هي مطاردة الناصر محمد وقتله، وكان هذا في اليوم الأول.

اصطحب قانصوه خمسمائة القضاة الأربعة للمذاهب السنية، واصطحب الخليفة العباسي المتوكّل والذي كان يقتصر دوره في تلك الأيام إلى رمز أو مفتي للديار، بالإضافة إلى بعض أمراء المماليك الموالين لقانصوه، ثم إنه توجّه إلى القلعة لقتل محمد.

وحين وصل قانصوه خمسمائة إلى باب السلسلة، وجد ما لم يتوقع أن يجد أبدًا.

وجد في انتظاره عدد ألف من المماليك المسلّحين، والذين يتبعون بالولاء للملك الأشرف قايتباي والد محمد، بالإضافة إلى بعض الجلبان الذين يتبعون «أبو سعيد» خال محمد ومعلّمه الأول، كانوا على أهبّة الاستعداد لمواجهة ذلك الانقلاب الأول منذ تولي قايتباي الحكم.

في تلك اللحظة، بدأت السلطنة في الانهيار، عند تلك اللحظة بالذات كانت هي الشرارة التي سوف تدق ناقوس الدمار على رؤوس المماليك من بعدها.

حين استنجد قانصوه خمسمائة بمماليكه أو كما كانوا يسمونهم «ولاد الناس» من أرجاء القاهرة الذين حضروا مسرعين لنجدة قانصوه.

ثم اصطف الجيشان عند القلعة، هي معركة للبقاء، إما أن يتنصر قانصوه فيفوز بكرسي السلطنة، وإما أن ينتصر محمد المراهق الذي عاث فسادًا في الأنحاء.



وقف الجيشان ينتظران بدء المعركة، المعركة الكبيرة نسبيًا والتي ستكون هي الشعلة التي تشعل نار الفتنة بداخل الدولة المملوكية، والتي ستسحب وراءها الكثير من الأحداث لاحقًا.

وعند لحظة معينة، هجم مماليك قايتباي وجلبان أبو سعيد على ولاد الناس من جيوش قانصوه.

كان قانصوه فارسًا بحق، يرفع سيفه ليقاتل في شجاعة بالغة، يجتز الرقاب كأنما يحصي ما كسبه من قوت يومه، يقفز هنا وهناك، ومن ورائه جيشه من الأمراء والمماليك، وكادت تحسم المعركة لصالحه، ولكن كما يقولون فالكثرة تغلب الشجاعة.

فلما تراءى لقانصوه أنه على وشك الهزيمة والانصياع تحت لواء الناصر محمد، أخذ جواده واستدار هو وأمراؤه حتى يتمكن من الهرب ثم لملمة ما تبقى من أنصاره حتى يعود مجددًا.

ولكنه حين استدار وهم بالركض بجواده، أصابه أحد نشّابي مماليك قايتباي في رأسه، فوقع من على جواده مغشيًا عليه.

قام أتباعه بالعودة ورفعه سريعًا حتى يتسنى لهم الهرب به، ثم إنهم قد أركبوه حمارًا سريعًا وهربوا به، ثم إنهم وصلوا إلى منطقة تسمّى « درب الشمسي» فاستقروا هناك واختبأوا.

أما عن الناصر محمد، فقد انتصر، وبعد الانتصار فقد هبط المماليك الجلبان من القلعة إلى القاهرة ليعيثوا فسادًا كي يكتمل انتصارهم.

فقاموا بالاستيلاء على ممتلكات الأمراء المعاونين لقانصوه من محال ودكاكين وبيوت، ثم إنهم لم يكتفوا بذلك فقط، بل إنهم استزادوا من الأمر بأن قاموا بإهانة القضاة نفسهم بأن خطفوا عمم القضاة أمام الناس، وهي أقصى مراحل الإهانة للقضاة.

ثم إنهم تشابكوا مع فلول العسكر التابع لقانصوه فقاموا بقتلهم عن



بكرة أبيهم، قاموا بمطاردتهم وقتلهم شر قتلة على مدار ثلاثة أيام.

وبهذا انتهت أقصر فترة سلطنة للمماليك والتي امتدت لثلاثة أيام فقط، ومنها بدأت الفترة الثانية لسلطنة الناصر محمد من جديد، ولكن تلك المرة بوصاية من خاله أبو سعيد.

السلطان الظاهر أبو سعيد قانصوه

كان أبو سعيد هو خال ومعلّم الناصر محمد أبو السعادات، والوصي الأول عليه في ولايته الثانية بعد هروب قانصوه خمسمائة.

كان رجلًا مسالمًا لا يطمع في سلطة، معلّمًا فقط، كان الأقرب للناصر محمد منذ معاملة والده السيئة له.

كانت الأحوال في السلطنة لا تسر عدوًا أو حبيبًا، الكثير من الفقر والتسول والعدوى السوداء التي تذهب وتأتي، الغلاء يسيطر على السوق وقطاع الطرق تنتشر في الأنحاء، لا أمن ولا أمان بأي منطقة في مصر.

كما أن العدو الخارجي يتربّص، ما بين البرتغاليين على حدود البحر المتوسط، والعثمانيين الذين يطمحون في توسيع الرقعة السياسية والجغرافية، والروس الذين يطمعون في استعادة ممالكهم الذائلة، والفرنسيين والإنجليز الذين يطمحون في رفع الصليب على الأقصى من جديد.

وبين كل هذا، كان الناصر محمد على عهده فاسدًا، لا يهتم إلا بشئونه الخاصة فقط، على عهده يقتل هذا ويسرق هذه، يسكر ويعربد



بلا حاكم، يجالس الحرافيش متناسيًا واجبه كسلطان للبلاد.

وما زاد وغطّى أن عاود الطاعون ليضرب البلاد في العام ١٤٩٨م وبقوة، ليخلّف الكثير من الجثث والتي من كثرتها لم يهتم أهلها بدفنهم ولا تكفينهم، كانوا يكوّمونهم بعضهم فوق بعض خارج أسوار القاهرة.

كان المصريون يحبّون قانصوه كثيرًا كما قلنا من قبل، كان بالنسبة لهم هو الخلاص من ظلم الناصر محمد وبطشه، كما أنه كان فارسًا مغوارًا، يمثّل كل ما هو نبيل بالنسبة للمصريين وقتها، ثقافة الفارس المتواري الذي سوف يعود حين يكثر البطش والظلم هي قديمة قدم الإنسان نفسه، وقد تمثلت تلك القيم وتلك النبوءات في قانصوه نفسه.

في تلك الأيام ظهر قانصوه خمسمائة مجددًا.

كان قانصوه يتعافى لفترة في مخبئه، وحين أتم شفاؤه ظهر على العامة عند القناطر السبع.

حينما لمحوه يظهر في الأفق، انتشرت الأخبار كالنار في الهشيم، وتنفّس المصريون الصعداء، وهتفوا باسمه «قد عاد قانصوه».

وحين انتشرت الأخبار، تجمّع العسكر من الموالين لقانصوه في أعداد ضخمة حتى يروه ويساندوه في العودة والانتقام.

وبالفعل ذهبوا للقائه عند الميدان الناصري، واستقبلوه وهللوا له، وقد خطب فيهم وقتها خطبة عصماء، ثم إنه في نهايتها قرر قانصوه العودة إلى الأزبكية لاستعادة تنصيبه.

ولكنه ما إن تحرّك حتى وجد أن عدد العسكر الموالين له والمتابعين في تناقص، لم يخرج معه إلا عدد قليل جدًا، وقد تراجع غالبية المماليك عن القرار وانسحبوا، رويدًا رويدًا، وشيئًا فشيئًا.

كان قانصوه قد قرر المبيت على مشارف الأزبكية حتى الصباح

مع عسكره، وقد كان، فلمّا استيقظ صباحًا لم يجد من العسكر ما يعد على اليدين، قد انسحب غالبية العسكر تاركين قانصوه وحده، تركوه قبل ميدان القتال وحده، خافوا من حرب قادمة وانسحبوا.

رأى قانصوه أنه وحده فعليًا، وما زاد وغطّى أن وصلته الأخبار أن الناصر قد علم بظهوره فأرسل جلبانه وراء قانصوه، وقد علم قانصوه أن الجلبان قد نزلوا بالفعل من القلعة في طريقهم إلى الأزبكية لقتال قانصوه.

فقرر قانصوه الانسحاب مجددًا، واتجه قانصوه بصحبه أمرائه صوب قرية سرياقوس «القليوبية» وقد أقسم على عدم العودة إلى القاهرة مجددًا.

اختفى قانصوه من مصر تمامًا بلا عودة.

من سرياقوس اتجه قانصوه إلى غزّة لمحاربة أقبردي الدوادار الذي كان يحتمي بها والذي كان السبب في كل ما حدث لطمعه في الحكم، ودارت معركة بين عسكر قانصوه وعسكر أقبردي انتهت بانتصار قانصوه على أقبردي، الذي حينما رأى أنه مهزوم لا محالة فرّ إلى خان يونس.

ذهب قانصوه وراءه ليكمل نصره وكاد يمسك به ليقتله، ولكن ما لم يكن في الحسبان وقتها أن الناصر محمد كان قد أرسل «إينال» حاكم طرابلس في جيش من العربان لمحاربة وقتل قانصوه ولإنهاء أسطورته إلى الأبد.

وبالفعل وصل العربان ودار القتال بين أقبردي وإينال والعربان من جهة، وبين قانصوه وفلول عسكره وأمرائه من جهة.

كانت معركة كبيرة ودموية، قتل فيها من قتل، وفي المعركة وأحداثها اختفى قانصوه.

لم يعلم أحد إن كان قد قتل أو هرب، ولكنه اختفى، قالت العربان



إنه قتل بالفعل ولكن أمر قتله كان مشكوكًا فيه.

في نهاية الأمر انتهت المعركة وقتل العربان الأمراء الموالين لقانصوه، ثم إنهم علّقوا رؤوسهم فوق الرماح وجاءوا إلى القاهرة حتى قصر الناصر محمد أبو السعادات، وكانوا يطوفون أرجاء القاهرة وهم يقولون «هذا جزاء من يخرج على الناصر، هذا جزاء من يخرج على السلطان».

حين وصلوا، علم الناصر أنهم قد انتصروا، ففرح محمد وأمر بتزيين القاهرة وإقامة مظاهر الأفراح.

كانت آخر رأس تدخل القاهرة مميزة، وضع العربان فيها أعين من الزجاج لتمييزها، وقالوا إنها تخص قانصوه نفسه، لكن من رأوا الرأس أجزموا أنها لا تخصه أو ليست له، فظهرت نبوءة جديدة بأن قانصوه توارى وسيظهر مجددًا، وهي النبوءة التي لم تتحقق أبدًا.

أما عن الناصر محمد فقد استراح من خطر كان يهدد عرشه الصغير، فأمسى سعيدًا مستريحًا بعدما انهزم قانصوه وتوارى أو قتل، فأكثر من مجونه وازدادت قائمة أعدائه من المماليك والأمراء، فقد كان دمويًا يتصيّد أصحاب الجرائم الصغيرة من السجون فيخرجهم ليعذبهم، فيقوم بقطع أيديهم وآذانهم وألسنتهم ليتسلى ثم يقوم بقتلهم، وكان يصاحب الأوباش، والمجرمين.

كان أبو سعيد أستاذه كما قلنا، له فيه صلة قرابة فقد كان أخًا لوالدته، مربّيه ومعلّمه، وكان أبو سعيد طيّب الخلق لا يقوى على تلك المشكلات.

أبو سعيد واسمه «أبو سعيد قانصوه» كان مملوكًا عند قانصوه الألفي والذي أهداه بدوره للسلطان الأشرف قايتباي، وتربّى في كنفه وكان خال الناصر محمد ابن الأشرف قايتباي، وحين تسلطن الناصر



محمد سمّاه المصريون والمماليك «خال السلطان»، وقد كان محبوبًا من المصريين ولكنه كان ذا شخصية ضعيفة نسبيًا، لا يقوى على أخذ قرار أو القيام بأية أفعال.

كان الناصر محمد في العام ١٤٩٨م يزداد طيشه وسوء أخلاقه، وقد تعدّى على أميرين من أكثر الأمراء قوة في الدولة وهما الأمير يزبك والأمير طومان باي، واللذان كانا يناصرانه في بادئ الأمر ولكنهما انقلبا عليه حين رأيا منه تلك التصرفات.

اختلى محمد من أي مناصر فيما عدا خاله أبو سعيد، الذي كان يناصره حتى في أفعاله الطائشة ويقف معه فيها، يحامي له من كراهية باقي المماليك له، كل هذا حتى حدث ما حدث.

حينما لام أبو سعيد السلطان الناصر محمد على بعض أفعاله وأمره بالتوقف، والذي كان عمره أيامها السابعة عشر من العمر فقط، ولكنه أبى وأهان خاله أشد إهانة.

كانت الفجوة بين السلطان وخاله تزداد، تتسع أكثر فأكثر، ينسحب خاله من صفوف مريديه مرّة تلو الأخرى، وتزداد الوقيعة بينهما أكثر.

كان أبو سعيد قانصوه في عهد السلطان الناصر محمد في منصب «الدوادارية الكبرى» والأقرب إلى السلطان، ولكنه ابتعد قليلًا حين اختفت لغة الحوار بينهما وتحولت إلى الصياح والإهانات.

فاستغل الأميران «يزبك» و«طومان باي» تلك الأحداث ليلتفّا حول أبو سعيد، فقد كانا قد خططا لإزاحة الناصر محمد من الصورة، وخططا لاغتياله.

حاول الأمراء الالتفاف حول أبو سعيد للقيام بتلك العملية لإزاحة ذلك الخليفة المارق عن طريقهما، وقد حاولا أشد محاولة في توطيد



علاقتهما بأبي سعيد الذي كان يبلغ من العمر بضع وعشرين عامًا.

شيئًا فشيئًا أقنعاه بضرورة اغتيال ابن اخته عن الطريق بعد أن وعداه بكرسي السلطنة له هو وحده، وأن يمسوا مماليكه ويحمون ظهره، وقد كان.

طمع أبو سعيد الذي كان يهان من قبل ابن اخته كثيرًا في كرسي السلطنة، فجالسهم وكادوا له، حتى تم الاتفاق على التنفيذ، وقد قابلهم أبو سعيد بالموافقة وشرعوا في التنفيذ.

وفي ليلة من ليالي شهر ديسمبر من العام ١٤٩٨م، دخلوا حجرة نوم الناصر حيث كان ينام وهو لا يعلم أنه سوف ينام إلى الأبد، فقاموا بخنقه حتى فارق الحياة لتنتهي أسطورة ذلك الشاب الذي أرّق منام المماليك الجراكسة في ذلك الوقت.

وفي صبيحة اليوم الثاني، تم إعلان سلطنة أبو سعيد وبايعوه.

كان أبو سعيد أو «الظاهر قانصوه الأشرفي» طيبًا مسالمًا لا يملك تلك الشخصية القوية مطلقًا.

حينما تم له ما تم الاتفاق عليه بينه وبين كلّ من الأميرين «طومان باي» والأمير «يزبك»، جلس أبو سعيد على العرش.

كان أوّل من بايعه هو الأمير يزبك نفسه، فقد قام بفعل الطقوس المتوارثة لتنصيب السلطان الجديد بالعرش من حيث تقبيل الأرض أمام السلطان الجديد حتى تم جلوسه على العرش.

ولكن السلطان الجديد لم يكن يدري ما يدور بنفس الأمير يزبك، فقد كان في قرارة نفسه مؤمن تمام الإيمان أنه هو الأحق بالسلطنة، بل إنه هو السلطان الفعلي للبلاد وقد كان يتصرّف على هذا الأساس.

وكذلك فعل طومان باي الذي طمع في السلطنة كلها له بمفرده، كان الاثنان يطمعان في العرش لنفسيهما.



يوم التنصيب، حاول أبو سعيد كسب ودهما خوفًا منهما ومن أن تطال سيوفهما رقبته.

فنصّب الأمير يزبك «أتابك الجيش»، ثم إنه أنعم على طومان باي بالداودارية التي كانت له من الأصل، بالإضافة إلى الوزارة والأستدارية كمكافأة على المساعدة في الإطاحة بالناصر محمد أبو السعادات.

مرّت الأيام، وكان أبو سعيد مجرّد سلطان بالاسم، لا يقوى على اتخاذ قرار بمفرده، بل إنه لم يكن يقوى على اتخاذ أيّة قرارات مطلقًا.

كان الحاكم الفعلي للبلاد هما الأميران يزبك وطومان باي، كان لهما الأمر والنهي في كل شيء، حتى في غذاء السلطان وملابسه، أما السلطان نفسه فكان مسلّمًا بوجوده في القصر مثله كمثل قطع الأثاث التي تزيّن قصر القلعة

حتى أنه لم يكن يعترض بل إنه قد تعايش على إلغاء شخصيته على الإطلاق، يترك الأمور كلها للأميرين بلا كلمة تزيد أو تنقص.

يفعلون ما يريدون من التجارة للحرب لأحوال الرعية، أما أهل السلطنة من مصر والشام فلم تكن أحوالهم تسر عدوًا أو حبيبًا، لا يهتم أحد من السلاطين السابقين والحاليين بشئونهم، فقد يتبارون على بسط نفوذهم بداخل أي شيء.

حتى أن أهل مصر كانوا إذا ما احتاجوا منه مصلحة أو أمرًا يخصهم شخصيًا، ويأتوه في قصره يشكوه أو يطلبون منه شيء، أي شيء، كان دائمًا ما يقول بلهجة مصرية «معرفش» أو «أخشى أنّ»، كانت تلك هي ردوده المعهودة على أي سؤال أو طلب، تتكرر دائمًا وأبدًا، حتى أن المصريين في ذلك الوقت قد أطلقوا عليه لقب «السلطان معرفش» وكانوا يطلقون عليه النكات.



كان أبو سعيد لا يدري ما يدور بين الأمراء وبعضهم البعض، وقد تكالب على العرش الكثير من الأمراء نسبة لضعف حكمه وكلمته العليا.

فقد كان الأمير يزبك والأمير طومان باي يحكمون السلطنة فعليًا، وقد أثار هذا غيرة بعض الأمراء الآخرين الذين آمنوا بأحقيتهم في العرش، وهنا يظهر في الصورة أمير مملوكي جديد يتنافس على العرش مع الأميرين، وهو الأمير جان بلاط.

الأمير جان بلاط من يشبك الأشرفي، كان مملوكًا عند الأمير يشبك وقد أهداه الأمير يشبك إلى السلطان قايتباي، فأعتقه السلطان وأنعم عليه بوظيفة الجمدار، ثم ظل يترقى ويعلو في المناصب حتى وصل إلى منصب «أتابكي» في عهد أبو سعيد.

ومما تراءى له من ضعف السلطنة وتخويخها وإفلاتها من كرسي السلطنة إلى أمرة الأمراء، فقد فرض نفسه على الصورة ليطالب بحقه في العرش من باب «ولماذا ليس أنا؟».

كان يزبك وجان بلاط على خلاف تنافسي دائم وما بينهم ليس الوفاق أبدًا، كانوا يكنون الكراهية لبعضهم البعض وهذا هو ما قاد في النهاية إلى كثرة الخلافات والتنافس على السلطة والنفوذ.

أما خارج حدود مصر فقد كان أمير الشام وواليها «قاصروه» ناقم على السلطنة في مصر، ربما قادته أطماعه إلى أن يحلم بالسلطنة من بلده بالشام، وهذا جعله ينقم على السلطنة في مصر ثم يستغل حالة الضعف التي تركها أبو سعيد في السلطنة ليتمرّد على السلطنة المملوكية في مصر ويعلن خروجه من تحت ظل المماليك في مصر.

أما عن حال مصر نفسها فحدّث ولا حرج، عمم ملوّنة ووجوه عابسة، فقر مدقع وغلاء للأسعار، ووباء يضرب من جديد، ولا أحد يهتم.

أبو سعيد نفسه كان يفضّل عدم التدخل والاكتفاء بوجوده كصورة



فقط او اسم لا يفعل اي شيء حتى لا يعرّض حياته للخطر، فقد سبق أبو سعيد تسعة عشر سلطانًا مملوكيًا تم اغتياله بالفعل، ولن يتوقف سلسال الدم على حظه هو تحديدًا.

لقد فضّل أبو سعيد الخنوع والاستسلام على أن تطير رقبته ويقتل كما قتل ابن أخته قبله.

حكم أبو سعيد صوريًا على الورق في مصر عامين يفيضان بالمشاكل وبسط النفوذ والغلاء وندرة الموارد في كل شيء، فضّل هو تجنّب المشاكل كلها فآثر لنفسه الهدوء بعيدًا عن المؤامرات والفتن، وترك كل شيء للأمراء.

لكنه بالرغم من كل شيء لم يتهنّ بذلك الهدوء طويلًا، فبعد أكثر من العشرين شهرًا في الحكم تحديدًا في العام ١٥٠٠م، بدأت المؤامرات والظنون تحاك من جديد بعدما حلم الجميع بالاستقرار.

كان الأمير طومان باي بالرغم من كل الامتيازات والنفوذ الذي كان يمتاز به، الا انه كان يطمع في المزيد، كما ان الخوف من تمرّد ونفوذ جان بلاط قد أكثر من مخاوفه بداخله من أي انقلاب أو تخطيط.

وكما يعلم الجميع، فالتخطيط والانقلاب معناه إما السجن أو الخنق.

وهذا ما قاده في النهاية إلى التفكير في طريقة ليضمن ألا يغدر به أي من الأميرين الآخرين.

فقرر البحث عن داعم له يحميه بجانب نفوذه هو شخصيًا، فقام بالتواصل مع قصروه في الشام كي يتّحد معه ضد الأمراء، ثم قام بالسفر إلى الشام ليتمم المعاهدة الجديدة، ثم أنه قابل قصروه الناقم على السلطنة في مصر، فاتفق معه على المعاهدة والاتحاد في مقابل وعده بتسهيل انتقال السلطة إلى الشام.

ثم إنه انتهى وعاد إلى مصر بالصعيد لمباشرة بعض الأمور



الخاصة بالسلطنة.

في ذلك الوقت وحين كان طومان باي في الصعيد، انتشر خبر سفره إلى الشام ليقابل قصروه بين الجميع من العوام والمماليك الأمراء.

وانتشر الخبر وانتشرت معه إشاعة مفاداها أن السلطان أبو سعيد حين علم بخيانة طومان باي، أنه أمر بالقبض على طومان باي فور وصوله إلى مصر.

وانتشرت الإشاعة بين الجميع، الكل يتحدث، الكل يتمتم، الكل يتوقع القبض على طومان باي في أي وقت، وبالرغم من معرفة الأمراء والعوام بأن أبو سعيد هو مجرد اسم لا صفة له، إلا أنهم صدقوها، وخاصة الأمراء من الموالين لطومان باي، وقد تناقلوا الإشاعة بينهم حتى وصلت أصداؤها إلى طومان باي نفسه.

أما أبو سعيد، الذي سمع بما يدور حوله وانتشار الإشاعة تلك عنه، واستشعر بحركة غير عادية حوله، علم ممن حول العرش أن الأمراء قد شرعوا في التخطيط لاغتيال أبو سعيد.

أبو سعيد الذي فضّل ألا يكون له رأي أو صفة حتى يتجنّب محاولات الاغتيال والقتل، قد دارت به الدنيا ومن مجرّد انتشار إشاعة في الأرجاء، تدور الكئوس لتبحث عن رقبة أبو سعيد هو أيضًا.

أبو سعيد الذي أكمل بناء قبّة وضريح له خارج حدود القلعة، وحلم بموتة طبيعية ودفنة في مدفن كالبشر، يبدو أن حلمه لم يكتمل أبدًا.

في ذلك اليوم من العام ١٥٠٠م ومع أول حركة غير عادية في القلعة، أدرك أبو سعيد أنه ميّت لا محالة، وأنه عليه التحرّك فورًا إذا ما كان يريد أن يحافظ على حياته.

وبدون تفكير، قرر أن يترك كل شيء وراء ظهره وأن يهرب إلى الأبد، أن يترك السلطنة والعرش والأموال والذهب، وأن يترك الأمراء



والمؤامرات والخطط، وأن يترك يزبك وطومان باي وجان بلاط وقصروه، أن يترك المماليك والخدم والصبيان والجواري وأن يرحل إلى الأبد.

في تلك الليلة، لم يبت أبو سعيد في فراشه نهائيًا، فقد قام من على عرشه واتجه إلى الحرملك «قسم نساء القصر» على عجل في قلعة الجبل، ثم إنه دخل إلى القسم ليبحث عن رداء أنثوي يرتديه ويختبئ وراءه، فوجد فستانًا ويشمك وغطاء رأس، ارتداها على عجل ثم إنه بخطوات بطيئة خرج من قسم النساء عابرًا ممرات القصر، متجاوزًا الكل عن طريق باب الحريم، ثم إنه سار بخطوات هادئة عبر الدهاليز ثم عبر الحديقة الخارجية حتى تجاوز القلعة نهائيًا، ثم إنه خرج وارتدى ملابسه وأخذ فرسًا وهرب، هرب خارج القاهرة إلى الأبد.

لحسن حظه أن الأمراء كانوا بالفعل على وشك التخلّص منه بالفعل، بالطريقة المحببة للاغتيال السياسي لدى المماليك، ألا وهي الخنق، وبالفعل دخلوا على عرشه متوقعين وجوده ليقوموا بخنقه، ولكنه لم يكن موجودًا وقتها.

بحثوا عنه في أرجاء القصر، لم يره أحد مطلقًا، حتى سألوا الحريم الذين رأوه يرتدي الفستان ويهرب، فشرعوا في البحث عنه في الجوار فلم يجدوه.

فأعلنوا اختفاءه ثم إنهم أعلنوا للعلن عن خلعه عن السلطنة، وأن العرش قد أصبح خاويًا بلا سلطان، وكان عليهم في ذلك الوقت أن يجدوا البديل، ترى من هو الأجدر بالسلطنة؟

طومان باي أم يزبك أم جان بلاط أم قصروه؟ أم أمير آخر؟



الكرسي لمن غلب

هرب أبو سعيد، ومعه بدأت حقبة جديدة أسماها المؤرخون «الكرسي لمن غلب» وفيها كان يجلس على العرش من له السطوة أو النفوذ، أو من ينتصر في النهاية.

ترك أبو سعيد العرش فارغًا، ومعه حالة من الفراغ السياسي اجتاحت أرجاء الدولة، فقد كان كل من حول السلطان يحلمون بكرسي العرش طامعين فيه.

وكان أكثر من يطمعون في كرسي العرش وقتها هم الأمير يزبك والأمير طومان باي والأمير جان بلاط والوالي قصروه.

حين رحل أبو سعيد، لم يكن الأمراء قد اتفقوا على من سوف يحل محلّه على السلطنة، وعلى هذا المنطلق كان منطقيًا أن ينقسم الأمراء فريقين أو أكثر، والكل يحارب من أجل السلطنة.

ولكن طومان باي الذي خاف من بسط نفوذ يزبك على حساب نفوذه ومصالحه الشخصية، قد قرر أن ينحاز إلى صف جان بلاط

تسلطن جان بلاط على عرش مصر بعدما أخذ البيعة بانحياز طومان باي إلى صفّه، وجلس على عرش السلطنة مدة عام كامل مليء بالاضطرابات والمشاكل.

كان العادل طومان باي «وهو غير الأشرف طومان باي» محبوبًا بين الناس والعوام، كان فارسًا له من المحبين الكثير حتى أن النسوة كنّ يزغردن من شرفات شبابيكهن حين يمر من أمامهن.

بعكس جان بلاط الذي كان غريبًا على الشارع المصري.



حين تسلطن جان بلاط، وصلت الأخبار إلى قصروه في الشام بأنه قد صار السلطان الجديد، ولما كانوا على خلاف من البداية على الحكم، فتمرّد قصروه مجددًا على السلطنة.

وأراد أن ينقلب على الحكم ثانية كونه كان يحلم من البداية بكرسي السلطنة.

حاول جان بلاط توطيد حكمه بأن يقرّب قصروه من إبعاد نفوذه بداخل وخارج مصر، وحاول أن يسترضيه بأن يقلّده منصب أتابك العسكر للدولة كلها، ولكنه استمر في تمرّده على السلطان ولم يخضع.

ففي السنة الثانية لحكم جان بلاط، حين سمع أن قصروه ينتوي الحرب وتجهيز جيش والإغارة على السلطان في مصر، واضطربت الأحوال في الشام وساءت بين المدنيين والعسكر، فقرر جان بلاط الخروج وملاقاته بالشام على أمل أن يردعه عن مثل تلك الأفعال.

وبالفعل، في العام الثاني جان بلاط تجهّز للسفر والحرب، ثم إنه اتجه إلى الشام عاقدًا النيّة لوقف تمرّد قصروه الضاري ليمكّن نفسه من السيطرة على الحكم بشكل مطلق.

ولكن ما إن وصل جان بلاط إلى الشام بين جنده، انحاز للعادل طومان باي بعدما أجريت الأتصالات بينهم.

فقد سبق قصروه جان بلاط وتواصل مع العادل طومان باي، الذي كان يرى انه الأحق بالحكم من جان بلاط هو أيضًا، إلى جانب ان العادل طومان باي كان ذا شعبية بين الجميع، فقام بالسفر إلى الشام قبل وصول جان بلاط بين عسكره.

وهناك، اجتمع مع قصروه بعدما أرسلوا إلى قضاة المذاهب الأربعة للذهاب إلى الشام هم أيضًا، ثم اتفقوا على عزل جان بلاط من على سدّة الحكم وتنصيب العادل طومان باي مكانه كسلطان للبلاد.



ما إن وصل جان بلاط إلى الشام، حتى وجد عسكر طومان باي وقصروه في انتظاره، فقاموا بخلعه من الحكم والانقلاب عليه.

وما زاد من الأمر أن العادل طومان باي اصطحب قصروه من الشام إلى القاهرة في ركب فخم ومعه من معه من الأمراء الموالين لطومان باي، قبل أن يسبقه جان بلاط إلى القلعة ليتحصّن به.

كان قصروه هو أوّل الداعمين لطومان باي، حتى انه كان يقبّل قدماه امام الكل ويأخذ من التراب الذي يدوس عليه العادل طومان باي ليضعه على كتفه.

ثم أن الرماة اصطفّوا أمام القلعة بالبنادق ليحاصروها حتى يخرجوا جان بلاط من القلعة.

حاصروا القلعة مدّة سبعة أيام كاملة، اضطربت فيها أحوال القاهرة ووقفت فيها حركات البيع، جان بلاط لا يريد الاستسلام للانقلاب، وطومان باي متمسّك بالسلطنة والقلعة والقصر.

حتى كان اليوم الثامن من جمادي الآخرة للعام ٩٠٦ هجريًا.

العادل طومان باي هو أبو النصر طومان باي، كان من مماليك السلطان قايتباي أهداه نائب الشام وقتها قانصوه اليحياوي إلى السلطان بين جملة من المماليك، عاش كواحد من المماليك الطبقة لفترة طويلة حتى قرر قايتباي عتقه وأهداه فرسًا وقماشًا وأصبح من المماليك الجمدارية «أي المختصين بالملابس السلطانية» حتى أعتقه الأشرف قايتباي، خرساني الأصل والمنشأ، تولى نيابة الإسكندرية في عهد الناصر محمد أبو السعادات، ثم ترقى للدوادارية الكبرى «المسئول عن البريد السلطاني» في عهد أبو سعيد، حتى وصل إلى مدبّر المملكة في عهد جان بلاط.

كان محبوبًا بين الناس في بداية سلطنته وما قبلها، كان وسيمًا



وفارسًا بحق، تزغرد النساء حين يمر بجواده قربهن، يهلل له العوام، يحظى بشعبية كبيرة بين الكل.

ولكن حاله كحال سائر السلاطين، كثرة المؤامرات والمكائد أصابته بجنون الارتياب، فقد كان دائم الشك فيمن حوله، يظن دائمًا أن هناك من سيعود ليقتص منه.

فتحوّل من ذلك الفارس ذي الشعبية المفرطة إلى حاكم جائر كغيره من الحكام والسلاطين

كان في بداية الأمر عادلًا محبوبًا يحقّه القاصي والداني بالمحبة والاحترام، ولكنه أصيب بنوع من جنون الارتياب جعله يأمر باغتيال كل من عاونه يومًا ما، تحوّل إلى سفّاك للدماء محب لها، فعندما تسلطن في الشام بمساعدة قصروه، توجه إلى القاهرة ومعه قصروه الذي كان يحتفي به أوّج الاحتفال، وكان يهيل التراب الذي يسير عليه طومان باي ويضعه على كتفه ويقبله كطقس من طقوس التسلطن وقتها.

ولكن وقتها كان جان بلاط يقطن القلعة ويتحصّن بها، فحاصره العادل طومان باي سبعة أيام حتى استسلم في النهاية.

فكسر العادل طومان باي باب السلسلة واقتحمها وألقى القبض على القاضي الشافعي محيي الدين عبد القادر ابن النقيب، ثم إنه أهانه وترك العوام يسبّونه لأنه اعترض على سلطنة العادل حينما كان في الشام.

ثم إنه أرسل إلى كل القضاة الشرعيين في مصر واجتمع بهم، وأمرهم بتنصيب صوري بالسلطنة كما حدث معه في الشام، وثبت على لقبه «العادل طومان باي» بعدما كان يلقب في الشام بالمؤيد.

وأصبح العادل طومان باي سلطانًا للبلاد لمدة ثلاثة أشهر وعشرة أيام فقط.

في تلك المدة البسيطة، كان العادل طومان باي شنيعًا في تصرفاته، حاد في طباعه، كرهه كل من تعامل معه.

ففي أول أيام السلطنة، أرسل في طلب أم الناصر محمد أبو السعادات وزوجة جان بلاط، فأقر عليها غرامة مالية قدرها خمسين ألف دينار هكذا، مما اضطرها لبيع قماشها نفسه.

بعدها، كان من عادة قصروه الأتابكي أن يبيت ليلتين أسبوعيًا في القلعة في القاهرة بجوار السلطان يسهران ويتسامران سويًا، وفي ليلة خميس بعدما انتهيا من الطعام والشراب، قال له العادل طومان باي بدون مناسبة تذكر: والله قلبي خائف منك يا أمير كبير

لم يفهم قصروه الذي عاون العادل طومان باي على الحكم معنى ما يقول طومان باي، وقد ابتسم وهو لا يدري ما الذي يدور في خلد السلطان وقتها.

بعدها قاما ليصلّيا صلاة العشاء سويًا، وحين انتهيا من الصلاة، أشار طومان باي لبعض المماليك الخاصكية، فقاموا على عجل وقبضوا على قصروه نائب الشام، فاقتادوه إلى مكان أشبه بالسجن، فأقام هناك بضعة أيام حتى أمر العادل طومان باي بخنقه حتى يتخلّص من المخاوف التي تواجهه تجاه كل المحيطين به، فقد أصيب بجنون الارتياب جعله يتصور أن كل من حوله يريدون قتله والاستيلاء على الحكم.

عندها، دخل الخاصكية على قصروه في المكان الذي يسجن فيه بلا أي تهمة تذكر، ثم قاموا بخنقه حتى أسلم روحه إلى خالقها بدون أي أسباب، قد مات من ساعد العادل في اعتلاء الحكم.

خنقوه، ثم غسّلوه وكفّنوه وأنزلوه من باب الدرفيل ثم دفنوه في مدافن خشقدم.



هو الذي كان الآمر الناهي في موكب السلطان والذي كان موكبه هو شخصيًا لا يقل هيبة عن موكب السلطان نفسه، صاحب الولائم والذي كان الجميع يهابه، انتهى بالخنق في حجرة مظلمة.

بعدها قرر القبض والتخلص ممن كانوا في صف قصروه من مماليك، أشهرهم يخشباي نائب حماة، وأمر بنفي الأمير قانصوه المحمدي إلى مكة، وأمر بنفي نائب الإسكندرية «قلج» إلى الشام.

كان وقتها قد اعتقل جان بلاط واحتجزه حتى يسدد ما أمر عليه من مال، وحين انتهى أمر بترحيله إلى الإسكندرية في السجن هناك.

فخرج جان بلاط مقيدًا بالسلاسل حتى وصل ثغر الإسكندرية.

في ذلك الوقت تفنن السلطان العادل طومان باي في نفي وخلع الأمراء في كل مكان في السلطنة، مئات الأمراء الذين تم خلعهم ونفيهم والذي كان يقرر عليهم الأموال وغيرها.

حاول العادل طومان باي قتل الشيخ جلال الدين السيوطي لأنه جادله قبل ذلك في بعض الأمور قبل سلطنته، ولكن الشيخ السيوطي اختفى، فاكتفى باستبداله.

ظل العادل طومان باي يقتل هنا ويخلع هناك وقد ازداد بطشه بالكل ظنًا منه أنهم يطمعون في كرسيه وأنه يحمي نفسه من بطش المماليك.

حتى قرر العادل طومان باي أن يقتل الأشرف جان بلاط في قيده في ثغر الإسكندرية، وقد أرسل إلى نائب الإسكندرية في السر يأمره بخنق جان بلاط في قيده، وقد كان.

كان جان بلاط مقيدًا بالسلاسل في مكانه، فدخل عليه الخاصكية أتباع نائب الإسكندرية فقاموا بخنقه، وكان يصرخ كالثور الهائج حتى صمت إلى الأبد، فدفن في مقابر الإسكندرية.



مات جان بلاط صديق العادل طومان باي الذي قرر التخلّص منه ومن أتباعه تباعًا، ذلك الذي كان يومًا ما صديقه المقرّب له.

كان الأمراء يختفون قسرًا، يختبئون من شرور العادل طومان باي الذي استفحل وصار يقتل هنا ويخلع هناك، وهذا الاختفاء المتزايد جعل السلطان يستشيط غضبًا فقرر أن يقتحم البيوت والحوانيت والحارات بحثًا عنهم، واستباح أعراض الناس وفتّش في حاجياتهم وأشيائهم حتى يجدهم بلا جدوى.

كان يأمر الشرطة أن تداهم البيوت والحارات من بعد العشاء وهم يحملون المشاعل ويشوّشون على الناس ويقتحمون بيوتهم ويسبون نساءهم، فاستعظم الناس تلك الفعلات على السلطان

بعدها كان حضور زليخا خاتون إلى القاهرة في طريقها للحج، وهي ابنة حاكم العراق، فاستقبلها السلطان استقبالًا حسنًا وكان من العادة أن يستقبلها أمراء المماليك.

فحضروا إلا قانصوه الغوري ولاقيت الرجبي الذين أحسوا بأنه سوف يتم الغدر بهم.

كان هذا يسمّى إضرابًا حين يرفض الأمراء الحضور إلى القلعة، وقد شكّ الأميران بأنه هناك ما يدور حولهما حين علما بأمر عرض عسكري في القلعة بمناسبة حضور زليخا، ولم يحضرا، وقد أشيع أنه سوف يتم التخلص منهما وقتها.

كان الأمراء قد ضاق بهم الحال مما يفعل العادل طومان باي بهم، فاجتمع الأمراء على التخلّص منه.

استشعر العادل طومان باي بالخطر حين نظر إلى التجمع المملوكي وقد رأى بعضًا من المماليك الذين كان يبحث عنهم بعدما اختفوا، فتوتر ونزل إلى باب السلسلة، وعلّق الصنجق السلطاني،



وصرخ على عسكره بالصعود إلى القلعة والحضور، ولكن لم يحضر أحد أبدًا، فاستشعر أنها النهاية.

كان هناك بعض الأمراء الموالين للعادل، ودار قتال بسيط بينهم وبين بعض العسكر المنقلبين ضده ولم يحدث شيء يذكر.

فلمّا رأى الموالون أن الغلبة للمتمردين، انسحبوا وتركوا العادل لمصيره وحده، عندها شعر العادل أنه وحده تمامًا، وعليه قرر أن ينسحب هو أيضًا.

فلمّا أتى الليل وكانت الليلة هي وقفة عيد الفطر، ترك العادل طومان باي القلعة وقرر الهرب، واختفى تمامًا، فاضطربت الأحوال لتنتهي فترة حكم العادل طومان باي إلى الأبد.

آخر سلطان فعلي:
الأشرف قانصوه الغوري



استطاع العادل طومان باي أن يهرب في النهاية بعدما تكالبت عليه قوى المماليك بلا رجعة، وعندما اقتحم المماليك القلعة اكتشفوا



أنه قد اختفى السلطان العادل من القصر، وقد صار العرش خاليًا ينادي لمن يريد، وقد كانت تلك هي المعضلة بحد ذاتها، فمن يكون هو السلطان الجديد؟

اجتمع الأمراء في منزل المملوك قانصوه خمسمائة في نفس يوم هروب السلطان العادل طومان باي وكان قد هرب بعد العشاء، اجتمع غالبية الأمراء الذين كانوا مختبئين ومختفين من جنون طومان باي بالسلطة وعلى رأسهم المملوك تاني بك الجمالي وقانصوه الغوري وخاير بك والأمير قيت الرجبي غيرهم.

حين أتى الأمير تاني بك الجمالي إلى الاجتماع في البداية اتفقوا على سلطنة تاني بك في البداية، والذي كان متناقض في تصرّفاته ولا أمان له ولكنهم تغافلوا عن كل ذلك واتفقوا على سلطنته.

وحين همّوا بالركوب لإعلان سلطنته عند باب السلسلة كما هي العادة وعلى رأس تاني بك الجمالي الصنجق السلطاني استعدادًا لإعلانه رسميًا، أشيع بين الحضور وبين الركاب أن المملوكي الشجاع «قانصوه خمسمائة» الذي كان قد اختفى من قبل ما زال على قيد الحياة وأنه سيظهر مجددًا.

ذلك الخبر أربك المماليك حينما سمعوه، فهذا معناه أن هناك من هو أجدر بالسلطنة وأحق، وأنه إن ظهر فهذا مؤشر بحرب جديدة وصراع على السلطة خاصة بعدما آلت إليه السلطنة من مشاكل وخلافات وصعود لبعض الأمراء الصغار.

حينها، قام الأمراء بالتراجع عن إعلان السلطنة في وقتها من ارتباكهم وخوفهم من معاودة ظهور ذلك الفارس المتمرّد قانصوه، ثم أنهم أمروا المنادين بالمناداة في كل الطرق والميادين والحارات، إنه إذا كان قانصوه خمسمائة على قيد الحياة، فليظهر وله الأمان في



خلال مدة أقصاها ستّة أيام، أما إن لم يظهر فليس له أمان بعدها.

ظل الأمراء منتظرين على أمل أن يأتي بلا جدوى، فتّشوا في كل مكان فلم يجدوا له أثرًا، ولمّا كان الوقت هو عيد الفطر المبارك، فقد قرروا فض المجلس والرحيل على أمل العودة في الغد لمعاودة البحث.

ظلّوا على هذا الحال إلى أن فقدوا الأمل في العثور عليه وتأكدوا أنها مجرّد أشعة لا صحة لها ولا أساس، عندها قرروا استكمال مراسم السلطنة، ولكنهم أعادوا الكرّة من جديد لكي يتمّوا اختيار السلطان الجديد الذي سيحل محل طومان باي الهارب.

ولكنهم حينما أعادوا الكرّة، اعترض الأمراء على اختيار تاني بك الجمالي، ولم يرض أحد منهم به لما به من شخصية متناقضة غير مؤتمنة.

وفجأة، صاح أحد الأمراء ويسمّى «قيت الرجبي» وكان أمير سلاح، ومعه الأمير «مصر باي» أنه لم يحكمنا ويصير سلطانًا علينا إلا الأمير قانصوه الغوري.

اندهش قانصوه الغوري من هذا التجديد الذي طرأ على الأمور وقتها، فقد كان الغوري قد بلغ من أعوامه الستين عامًا، وقد كان يكره السلطنة بكل مميزاتها لما بها من خطر على حياته، حيث إن غالبية السلاطين السابقين قد تم اغتيالهم أو التآمر عليهم طمعًا في عروشهم.

ولهذا اندهش الغوري، وبكى، ثم حاول مع الأمراء ليغضوا بصرهم عن تلك الفكرة في سلطنته وأن يتركوه وشأنه، ولكنهم كانوا قد عقدوا العزم على سلطنته وانتهى الأمر، ومن ثم دفعوه دفعًا إلى السلطنة وألبسوه الصنجق السلطاني، وأرسلوا في طلب القضاة للمذاهب الأربعة والخليفة العباسي ليصدّقوا على الخبر، وكان قانصوه وقتها منشغلًا بالبكاء والنحيب والترجي بلا جدوى.



قانصوه الغوري هو الملك الأشرف أبو النصر قانصوه من بيبردي الغوري (٨٥٠ هـ/١٤٤٦ م - ١٥١٦ م)، ويعد الملك السادس والأربعين من ملوك المماليك وأولادهم بالديار المصرية، وهو العشرون من الملوك الجراكسة، كان أصله جركسي الجنس من مماليك الأشرف قايتباي، أعتقه وجعله من جملة المماليك الجمدارية، ثم خاصكيًا، ثم كشافًا بالوجه القبلي سنة (٨٨٦هـ).

ثم أنعم عليه الأشرف قايتباي بإمرة عشرة لعام (٨٨٩هـ) وخرج في بعض التجاريد «الحملات العسكرية» إلي حلب، ثم تولى نيابة طرطوس، ثم عين حاجبًا بحلب ثم نائبًا لملطية، ثم أنعم عليه الملك الناصر محمد بن قايتباي بإمرة ألف، ثم رأس نوبة النوب في زمن الظاهر قانصوه خال الملك الناصر محمد بن قايتباي، ثم ترقى إلي دوادار كبير، وفي دولة الأشرف جان بلاط عين وزيرًا وثبت على هذا المنصب حتى وقت تمرّد قصروه في الشام، ثم أنه صار من المغضوب عليهم في زمن العادل طومان باي واختفى ثم انقلب مع من انقلبوا على العادل طومان باي حتى ترك القلعة وهرب.

عيّن قانصوه الغوري كسلطان بالإجبار والإكراه بعدما أجبر الأمراء القضاة والشهود على الشهادة ضد الهارب طومان باي بأنه سفّاك للدماء ظالم وتوجب عليه الخلعة، ثم ألبسوا الغوري لباس السلطنة المكوّن من الجبّة والعمامة السوداوتين، وكان لايزال يبكي وينحب لكي يعفوه من السلطنة بلا نتيجة تذكر.

لم ينتهوا حتى وصل قانصوه الغوري إلى سريره الملكي بسلام، وقد تقلّد منصبه الجديد رغمًا عنه وكان ذلك في العام ٩٠٦ هجريًا

وقد قبل قانصوه الغوري السلطنة في النهاية بعدما اشترط على الأمراء ألّا يقتلوه إذا أرادوا خلعه وهو قد أقر لهم الوعد بأنه إذا ما



اجمعوا على خلعه فسيغادر في سلام.

لم يكن قانصوه الغوري هو الأجدر بالسلطنة وقتها، لم يختره الأمراء لحنكته ودهائه وما إلى ذلك، ولكنهم اختاروه لكونه ضعيفًا وهزيلًا وهيئ لهم أنهم سوف يسيطرون على مقاليد الحكم بالصعود فوق أكتاف حاكم ضعيف يعاني من الشيخوخة، ولكن ما لم يدركه المماليك وقتها أن عامل السن يعطي لصاحبه خبرة وحكمة إذا ما استخدمهم بغرض الاستمرار في الحكم لأحكم سيطرته كاملة، وقد كان.

كان ما يشغل بال قانصوه الغوري وقتها هو ضرورة العثور على العادل طومان باي والتخلّص منه حتى يقفل باب الخطر المواجه لعرشه إذا ما أراد أن يظل جالسًا على عرش السلطنة، فكان جل باله أن يعتقله ويتخلّص منه، فكوّن حملة للبحث عنه في كل حارة وكل بيت، أمر جنوده بالبحث عنه ومداهمة منازل من كان في فريقه يومًا ما، من قضاة وأمراء عشرة ونبلاء وخلافه، وقد داهم الحرس والجنود عددًا لا يحصى من البيوت والمتاجر والحارات ولم يعثروا عليه، حتى أنهم قد هاجموا بيت قاضي القضاة الحنفي برهان الدين بن كركي ونهبوا بيته وصندوق أموال الوقف.

استعظم الأمراء أمر البحث عن طومان باي، حيث إنه على مدار أيام كان المماليك يرتدون ملابس الحرب ويرفعون أسلحتهم، ويداهمون البيوت خوفًا من ظهور طومان باي مجددًا.

فلمّا ضاق بهم الأمر، قرروا الإيقاع بطومان باي بالحيلة، واقنعوا جاني بك الذي كان مملوكًا لدى العادل ومؤتمن أسراره أن يستدرجه ليخرج من مخبئه بحجّة أنهم سوف يقومون بالانقلاب على قانصوه الغوري ومن ثم يوقعون به، فاقتنع طومان باي في النهاية وجاء إلى بيت جاني بك الشامي، ليكتشف أنها مكيدة للتخلّص منه، حيث أبلغ



جاني بك الشامي الأمير مصر باي بوجوده في داره، فأعد العدة وذهب إلى داره ليتخلّص من طومان باي إلى الأبد.

حينما رأى طومان باي المماليك قادمون إليه حاول تسلّق الحائط ليهرب، ولكنه وقع فانكسر فخذه نصفين، ليهجم عليه واحد من المماليك اسمه أرزبك فيقطع رأسه.

وصار كل مماليك جنبلاط وقصروه يضربونه بالسيف حتى تناثر جسده وتغطّى بالدماء وهمد إلى الأبد.

أخذ مصر باي رأسه ووضعها على طبق من النحاس، وطاف في أرجاء القاهرة ينادي «هذا جزاء من يسفك الدماء».

بعدها أمرهم قانصوه الغوري بدفنه فغسّلوه وصلوا عليه بملابسهم العسكرية خوفًا من التنكيل بجثته عن طريق مماليك جان بلاط وقصروه، ثم قاموا بدفنه وانتهى أمر طومان باي إلى الأبد.

خالف الغوري سريعًا توقعات خصومه من الأمراء إذ نجح في إبعاد كثيرين منهم وفرض ضرائب باهظة على آخرين واستأثر بالملك، وأظهر حنكة في إدارة شئون الدولة التي انخفضت إيراداتها بشدة بعد اكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح، إلا أن الإجراءات التي قام بها جلبت غضب الناس والمماليك عليه حيث فرض ضرائب باهظة وخفض الأجور مما أدى لحالة تذمر بين المماليك ولم يمنعهم من عزله إلا خوفهم من انعدام أجورهم بعد ذلك إذا عين أى سلطان آخر.

كان قانصوه الغوري مولعًا بالبناء والعمارة، وازدهرت العمارة في عهده فأقام سوق الغورية والمساجد والمدارس والخانات كخان الخليلي، والقباب والوكالات كوكالة الغوري، واستولى في عهده على قصر العيني المهيب ذا الستمائة غرفة، وكان في تلك الفترة يفرض



الضرائب باستمرار على الكل، كان يتبع طريقة وهي ما يحتاجه الغوري يدفعه الشعب والأمراء.

ففي عهده كان يعاقب بالضرب من يرفض الدفع، فامتلأت خزائن الدولة على آخرها من الأموال التي كان التجار والأمراء يدفعونها على هيئة ضرائب.

كان البرتغاليون في ذلك الوقت قد اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح التجاري وسيطروا عليه.

وكانوا يتطلعون إلى البحر الأحمر من أجل تحقيق حلم السيطرة على كل طرق التجارة فاستولوا على الحبشة ثم هاجمت سفنهم سواحل مصر والحجاز في عهد السلطان الغوري بعدما كانت سيطرة التجارة البحرية في أيد المسلمين منذ عهود الصحابة الأوائل ومعركة ذات الصواري.

حاول البرتغاليون كسب تعاطف باقي أوروبا معهم بإكساب حملتهم على دولة المماليك بعدًا صليبيًا كعهودهم في البحث وراء البعد الديني للبحث عن حجة للسيطرة على الأرض الشرق أوسطية.

وأعلنوا أن هدفهم الرئيسى هو الأراضي المقدسة في مكة والمدينة.

أمر السلطان ببناء الشون وأرسل الحاميات البرية إلى السواحل لمنع تقدم البرتغاليين على الأرض.

ثم بعد اكتمال جاهزية السفن بدأت معارك بحرية عنيفة نجحت فيها البحرية المملوكية في طرد السفن البرتغالية من البحر الأحمر والاحتفاظ به كبحيرة مملوكية مغلقة، ثم تقدمت سفن المماليك في المحيط الهندي وهاجمت القلاع البرتغالية على سواحل اليمن وعمان وإيران وشرق إفريقيا ثم طورت هجومها باتجاه المستعمرات البرتغالية في الهند لمساندة حاكم جوجارات الهندية الموالية للمماليك



وهزموا البرتغاليين بالفعل عام ١٥٠٨م في معركة شاول إلا أن البرتغاليين تمكنوا من إعادة تجميع أسطولهم وهاجموا أسطول المماليك في معركة ديو ١٥٠٩ فهزموهم هزيمة قاسية فانسحب المماليك واكتفوا بالسيطرة على البحر الأحمر.

بدأ العثمانيون في الظهور كقوة صاعدة في المنطقة منذ النصف الأول من القرن الرابع عشر.

وعند قيام دولة بني عثمان اتخذ العثمانيون من مدينة «بروسة» في آسيا الصغرى عاصمة لهم وبمرور الوقت بدأت الدولة الجديدة في التوسع حتى استولت على منطقة آسيا الصغرى بأكملها وتوجت انتصارات العثمانيين بنجاح السلطان محمد الفاتح في فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ ميلادية تحقيقًا لنبوءة نبي المسلمين محمد والذي أكسبهم شعبية فوق شعبيتهم.

وقد اتسمت العلاقات المصرية العثمانية في بادئ الأمر بسياسة المودة والتحالف حيث تحالف المماليك والأتراك ضد الخطر البرتغالي المهدد للسيادة المملوكية في البحر الأحمر وكذلك تحالفت الدولة المملوكية مع نظيرتها العثمانية ضد غارات المغول بقيادة تيمورلنك وبقايا الصليبيين.

إلا أنه سرعان ما تصاعدت حدة التوتر بين الدولتين خاصة مع اقتراب حدود الدولة العثمانية مع أملاك المماليك

ظهرت الدولة الصفوية الشيعية في الشرق في إيران والعراق عام ١٥٠١م وبرزت تطلعاتهم نحو الشام مبكرًا.

ففي عام ١٥٠٧م قامت قوة صفوية بمهاجمة حامية ملطية التابعة للمماليك، ورد الغوري بقوة إذ أمر بحشد ألف وخمسمائة من قواته واستعدوا لحرب الصفويين وقبل أن تخرج القوة من القاهرة وصل



رسل من الشاه إسماعيل تقدم اعتذارًا عما حدث وزعمت أنه خطأ ما.

وبدا الرسل ريفيين أجلافًا وهم بداخل قصر القاهرة الأنيق مما حدا بقانصوه لإهمال الصفويين، وبرغم تكرارهم للهجمات لاحقًا إلا أنه اكتفى بإرسال أمير عشرة لمعسكر الصفويين لأمرهم بالانسحاب. غير السلطان من نظرته للصفويين تمامًا عام ١٥١١م إذ وقعت في يده رسائل من الشاه إسماعيل لملوك أوروبا يستحثهم على حرب المماليك والعثمانيين من الغرب بينما يهاجمهم هو من الشرق.

أخذ السلطان التهديد الصفوي على محمل الجد وارتاب من تحركات الشاه إسماعيل، تطورت الأحداث بعد ذلك بين الشاه إسماعيل والسلطان سليم الأول سلطان العثمانيين وبدت الحرب على مقربة بينهم وبحث كل من الطرفين على مساعدة السلطان الغوري ضد الآخر فآثر التزام الحياد، وانهزم الصفويون هزيمة شنيعة في معركة جالديران على يد السلطان سليم في ١٥١٤م الذي قام بعد المعركة بالهجوم على إمارة ذو القدر التابعة للمماليك وإبادتها، مما أدى لزوال كل الدول العازلة للمماليك عن العثمانيين وظلّت مصر هي المعقل الوحيد للمماليك والعقبة الوحيدة في طريق بنو عثمان في التوسع.

استغل سليم الأول رسائل علماء ومشايخ الشام في الاستنجاد بالعثمانيين من بطش المماليك، وأخذ قرار الحرب ضد المماليك وضد قانصوه الغوري.

كان الخطأ الوحيد الذي وقع فيه الغوري بالرغم من قوته الضارية وجيشه الكبير هو عدم اللجوء إلى التجديد في الأسلحة، ورفض ضم سلاح جديد تستخدمه أوروبا وقتها وهي البندقية.

حيث إن تاجرًا مغربيًا قد عرض عليه ذلك السلاح الجديد ليضمّه



إلى الجيش فيقوّي من شوكة الجيش المملوكي، وكان هذا في ظل التهديدات البرتغالية والعثمانية على سواحل مصر.

وقتها رفض قانصوه الغوري ضم ذلك السلاح قائلًا إنه سلاح يستخدمه الجيش الكافر وأن السيف هو سنّة عن النبي، وأن البندقية قد تجعل المرأة تقتل به ما يقتل به عشرة جنود بالسيف، ولكننا لن نترك سنّة نبينا.

كان هذا هو الخطأ الكبير الذي ساعد في هزيمة المماليك أمام العثمانيين.

مع تصاعد الأحداث، وتهديد سليم الأول العثماني صراحة للسلطنة المملوكية بالحرب، لم يجد قانصوه الغوري بدّا من ملاقاة العثمانيين ومحاربتهم، وقد كان.

ففي أغسطس من العام ١٥١٥م سافر قانصوه الغوري إلى مرج دابق في سوريا برفقة جيوشه وقادته من المماليك لملاقاة العثمانيين الذين تمركزوا في تلك النقطة لاستعدادهم للحرب مع المماليك، وكانت تلك النقطة هي الفيصل بين مناطق نفوذ كلا الفريقين.

ودارت المعركة، وكانت النصرة فيها للعثمانيين حيث إن جيش المماليك كان يعتمد على السيوف وتكتيكات الحروب القديمة إلى جانب بعض من المدافع البالية، أما الجيش العثماني فكان قد جهّز جيشه بالبنادق والبارود، وحين دارت المعركة، أمطر العثمانيون المماليك بالطلقات النارية والتي أجهزت على الصفوف المتقدمة فخاف باقي المماليك وحدث هرج ومرج وانسحب الجيش في شكل انهزامي مخز، كانت هي المرّة الأولى التي يرى فيها جيش المماليك تأثير البندقية على الحرب، فلم يكونوا يتوقعون أن البندقية تقتل بهذه السرعة وهذا ما أخافهم وجعلهم ينسحبون تاركين قانصوه الغوري وحده على فرسه



يصرخ فيهم بالعودة إلى صفوف الحرب، ظل الغوري وحده يصرخ ويحفّز الجنود على العودة بلا جدوى حتى أصابته رصاصة أوقعته من على فرسه، فداسته سنابك الخيول العثمانية، واختفت جثّته إلى الأبد.

أما عن تفاصيل المعركة، فقد اصطف الجيشان في مرج دابق وبدأت المناوشات بينهما وما لبث أن قام فرسان المماليك بهجوم خاطف على الجنود العثمانية فزلزلوهم واضطربت صفوفهم.

حيث هاجم رماة السهام من فرسان المماليك حملة البيارق من العثمانيين ثم التفوا لمهاجمة حملة البنادق الموسكيت والقربينات، واستبسل الجنود المماليك وأظهروا الشجاعة حتى فكر سليم الأول في تجديد الهدنة بعد الخسائر الفادحة التي نزلت بجيشه.

إلا أن ضربات المدفعية القوية قد أذهبت هجمات المماليك أدراج الرياح.

كان قانصوه الغورى يقود الجيش من على فرسه حينما انحاز فجأة خائر بك والي حلب وقائد الميسرة للعثمانيين ومعه القاضي يونس وجان برد الغزالي، ولم يكتف بذلك بل ادعى أن السلطان قانصوه الغوري قد قتل.

فاهتز المماليك بعد انكشاف صفوفهم وقلة عددهم وانهيار معنوياتهم بعد إشاعة مقتل السلطان وانتهاء هجمات المماليك الجلبان إلى لا شيء.

وكثف العثمانيون من قصفهم للمماليك بالمدافع التي لم يهتم بها المماليك مثل العثمانيين، فزادت الخسائر في صفوف المماليك وبدأ الجنود في التخاذل والهرب، فانفك الجيش وانتصر العثمانيون وقَتلوا أعدادًا كبيرة من الجنود المماليك وقتل قانصوه الغوري أثناء انسحابه،



ولم يعثر للسلطان قانصوه على جثة وقيل إن أحد ضباطه قام بقطع رأسه ودفنها حتى لا يتعرف عليها العثمانيون فيتشفون فيها.

وانتهت سيرة واحد من اطول فترات حكم المماليك الجراكسة على مصر، ومع الهزيمة تقدّمت قوات العثمانيين في اتجاه القاهرة للسيطرة عليها لتبدأ حقبة جديدة في تاريخ مصر.

المملوك الشهيد:
آخر سلاطين المماليك طومان باي

دعونا نتخيل اللحظات الأخيرة في عمر آخر سلاطين المماليك ما قبل الغزو العثماني بطريقة غير معتادة، فالنتخيلها كما لو كان من يراها هو آخر السلاطين المماليك « الأشرف طومان باي» بنفسه وهو في طريقه إلى الأعدام، ولنر سويًا ماذا سوف يرى.

العام هو ١٥١٧م، طريق مليء بالمصريين والشوام ومماليك صغار على كل جانب مصطفّين، كل يشاهد ويبكي ويتحسّر، كل يتابع الحدث في حزن دفين يكاد يتحوّل إلى نواح.

وبين ذلك الجمع من الناس، يتحرّك الحرس العثماني في موكب مهيب يسير في الطريق إلى باب القاهرة الأشهر «باب زويلة»، وفي منتصف الموكب تمامًا حصان، يمتطيه شاب صغير تمتلئ ملامحه بالعزّة والمروءة، يعاني من بعض الجروح في وجهة وساعديه وكل جرح يكشف عن قصة وجهاد.

الشاب مكبّل بالحديد، يسير في تؤادة لا يدري إلى أين هم به ذاهبون، ينظر حوله فيرى الحضور.



السلطان العثماني سليم خان كان حاضرًا ويشاهد في وقار.

خاير بك ونظرة التشفي، ابتسامة العرباني حسن مرعي الشريرة، والحزن على وجوه المصريين يقص علينا ألف قصة وقصة، كان الشاب يعرف، لكنه كان يحاول النسيان.

وصل الموكب لوجهته في أشهر ميادين القاهرة القديمة تمامًا أمام باب زويلة، نظر الشاب في اتجاه ذلك الباب فلمح ذلك الحبل المعقود على هيئته، حبل الإعدام يقسم الباب قسمًا، لربما قاسوا به حدود وجوانب القاهرة نفسها يومًا ما، حبل معقود مصنوع خصيصًا لأجل تلك اللحظة يفصل بين وجوده وعدمه، وفهم الشاب القوي في لحظتها أنها النهاية، وأنه بين فينة وأخرى سيغادرعالمنا ليقابل خالقه فقد حان الميعاد ولا مناص.

ذلك الشاب يكون الأشرف طومان باي، آخر سلاطين المماليك ومن أفضل وأشجع حكامها وسلاطينها بالرغم من قصر فترة الحكم، كان يعلم في قرارة نفسه وبداخله أن مصر منذ الفتح العربي على يد ابن العاص لم تك أبدًا ولاية تابعة، دائمًا كانت صاحبة الدور الأهم والعاصمة الأكبر حتى وإن كانت للدولة الإسلامية عاصمة رسمية غيرها، هي نقطة الالتقاء والنهاية لكل من حكم العالم، حكم الأمويين من دمشق وكانت القاهرة هي العاصمة، وحكم العباسيين من بغداد لكن كانت القاهرة أهم الولايات ذات السيادة المنفصلة، ثم توالت الدول الإسلامية صانعة من مصر عاصمة للخلافة، الفاطميون والأيوبيون والطولونيون والإخشيديون وصولًا إلى المماليك، هكذا تعلّم ذلك الشاب وهكذا قاده قدره، حين رفض غير ذلك.

ولكن وصول سليم خان الأول عام ١٥١٧م قادمًا من البحر المتوسط والأناضول قد غيّر المفاهيم وما تربّى وترعرع عليه، لأول



مرة تتحول مصرمن سلطنة ذات سيادة إلى مجرد ولاية لا قيمة لها، قطعة من الأرض في محيط مملكة تعامل مثلها مثل أصغر إقليم في أقصى الحدود، انتهى استقلال مصر وقتها لمئات الأعوام.

الأشرف طومان باي آخر سلاطين المماليك، وقف لحظة أمام حبل الموت ليتذكر كل ما كان السبب في الوصول إلى تلك النقطة.

ومضات من نور، كل ومضة بمشهد، وكل مشهد له قصة

ومضة:

الومضة الأولى، اكتشف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح الذي كان السبب في فتح طريق لتجارة جديدة، وتدريجيًا مع الوقت رفع سلطة المسلمين عن الطريق البحري التجاري والذي تحكّم فيه المسلمون لقرون، وأصبحت أرض العرب مهدّدة من احتلال برتغالي أو أوروبي بشكل عام، خطر الاحتلال يقترب.

ومضة:

الأسطول البرتغالي يقترب من جزيرة العرب في اتجاههم، تهديد صريح خفقت له قلوب المماليك وشرعوا في القلق من التهديد الأوروبي القادم لا محالة.

ومضة:

الشاه إسماعيل الصفوي استطاع أن يسيطر على بلاد فارس «إيران» بعد معركة دامية وانقلاب، وإذ فجأة تتحوّل إيران كلها من دولة سنية تابعة إلى مذهب العباسيين إلى دولة شيعية المذهب اثني عشرية الفرع بالكامل، ثم يحتل الشاه الصفوي العراق وتقع بغداد تحت يده ويضطر الخليفة العباسي الأخير «المتوكل على الله» وأسرته أن يلجأ إلى القاهرة في ضيافة المماليك، أقرب السلاطين المسلمة المنظّمة لهم، وتقوم الحرب بين الصفويين الشيعة الجدد



والعثمانيين السنّة.

ومضة:

سنة ١٣٦٥م ملك جزيرة قبرص بيير دو لوزينان de Pierre Lusignan والذي كان متعصبًا كثيرًا لما حدث مع القديس لويس التاسع والهزيمة الكبيرة التي ذاقها في المنصورة وفارسكور، وكان كثيرًا ما يحلم باستعادة القدس إلى الصليبيين، فحاول استمالة أوروبا لشن حملة صليبية موسّعة جديدة، ولكن أوروبا كانت وقتها تغرق في المشاكل الداخلية وعدم الثقة في حملات صليبية من جديد.

كما أنهم كانوا على علاقات تجارية حسنة بمصر، فقام هو بجمع أكثر من ثمانين سفينة حربية ملاى بالجنود والسلاح وقاموا بالانزال على شواطئ الإسكندرية في عهد السلطان الأشرف شعبان والذي كان طفلًا عمره لا يتعدى الإحدى عشرة سنة.

أما عن الإسكندرية فقد كان يحكمها أمير صغير السن يسمّى جنغرا، كانت الحركة في مياه البحر غير عادية، أو بمعنى أدق مريبة بعض الشيء، وكان أهل إسكندرية يعتقدون أنه مجرّد سفن تجارية ليس إلا، وبطريقة مباغتة تم إنزال السفن على الشاطئ وترجّل جنود من الجيش منها في حركة غير متوقّعة مما أثار وقتها الهرج والمرج.

ومضة:

حينما احتلت الجنود الإسكندرية، استطاع الحاكم المملوكي الصغير جنغرا الهرب إلى دمنهور، وأيقن وقتها الحاكم الصغير أنها حملة صليبية جديدة بلا ترتيبات أو إنذارات مسبقة.

ولا توجد في الإسكندرية تحصينات تذكر، أما عن القاهرة، فقد وصلتها رسالة استغاثة تبشّر بالحملة، ولكن السلطان المملوكي أعاد التفكير فيما آلت إليه الأمور وشك في أنها لربما تكون مكيدة للسيطرة



على العرش كما عهدوا من قبل، فلم تتحرّك فرقة من الجيش للنجدة.

أما عن الأهالي فقد تجمّعوا وراء الأسوار عند جزيرة فاروس في الإسكندرية خوفًا من الهجوم المباغت.

الجنود الذين أنزلوا على الشاطئ، فقد تسببوا في حدوث أكبر مذبحة في تاريخ إسكندرية.

اقتحموا البيوت والمتاجر والكنائس والمساجد، قتلوا آلاف المصريين وأشعلوا النار في كل مبنى في المدينة، كما قاموا بخطف أكثر من خمسة آلاف مدني وامرأة وطفل، استمروا أكثر من ثلاثة أيّام يسرقون أي شيء يقع بين أيديهم، زاد وعتاد وبضائع وأموال وذهب وخيول وأي شيء يستطيعون حمله فوق السفن، كانت مذبحة شبيهة بمذبحة القدس في الحملة الصليبية الثالثة، حتى القبور هدموها واعتدوا عليها، سمّيت بعد هذا بواقعة إسكندرية.

يقال إن من كثرة المسروقات التي استولوا عليها، كانوا يقذفون أكثر من نصفها في مياه البحر حتى يخففون من الأحمال، وعندما وصلت الأخبار إلى الإسكندرية أنه قد تحرّك جيش القاهرة صوب المعركة، انسحب الملك بيير بعدما نقل الخيول والجمال بأكملها وأخذ جميع المسروقات التي كانت بالأطنان، واتجه عائدًا إلى قبرص، بعدما تحولت الإسكندرية إلى أطلال.

ومضة:

هذه الواقعة أثرت على حركة الملاحة العالمية، خصوصًا أن أوروبا قد فرضت شروطًا وحزامًا اقتصاديًا على مصر لإضعافها أكثر فأكثر، وأثر هذا على اقتصاد مصر لقرون عدة، وشكلت خطرًا كبيرًا على العثمانيين من جهة البحر، وأيضًا امتد أثرها لمئات السنين بعدها.



وبالرغم من أن في عهد الأشرف برسباي بعد ستين عامًا من الواقعة احتل الجيش المصري قبرص ورفع العلم المصري في كل أرجاء الجزيرة، وأسر حاكمها چانوس لوزينان وكبله بالحديد وزفه في شوارع القاهرة والإسكندرية، ولم يكتف الجيش بذلك فقط بل عرضه للبيع ووضعه في التراب تحت أقدام الأشرف برسباي وذلك بعد أسر الجيش كله، ودفع فدية وجزية كل عام، إلى ما بعد محمد علي تقريبًا، لكن ظلت واقعة الإسكندرية مؤثرة على الاقتصاد في الشرق الأوسط.

ومضة:

محمد الفاتح العظيم العثماني، ينجح أخيرًا في تحقيق نبوءة النبي محمد، القسطنطينية عاصمة البيزنطيين، أخيرًا أتم فتحها ١٤٥٣م، ووقعت تحت ايدي المسلمين بعد مئات السنين من المحاولات الفاشلة لفتحها، المحارب الكبير الذي نجح في أن يهدم سلطة أوروبا ويهدد بقاءها، وفي نفس الوقت على صعيد آخر ظهرت في الأفق مملكة أو قيصرية كبيرة تسمى القيصرية الروسية، العدو الأول للعثمانيين، ومن بعد محمد الفاتح أصبحت المنافسة شرسة له، والعثمانيون كانوا على أمل أن يتوسعوا أكثر من هكذا توسع، وهذا ما جعلهم يتجهون إلى الشرق الأوسط.

ومضة:

لكل هذه الأسباب بدأ السلطان سليم خان الأول التفكير بشكل جدي في غزو مصر، يرى سليم الأول وهو يفكر أن مصر أصبحت خطرًا على توسعه وتقدمه، وفي نفس الوقت خطرًا على الشرق ككل، لابد من تأمين، ولابد احتلال عسكري.

ومضة:



نائب حلب المملوكي الذي عاش في كنف قلعة الجبل في القاهرة، الذي صنع منه قايتباي قائدًا وحاكمًا عسكريًا، خاير بك الذي لم يكن يحلم بأن يصبح مجرّد وزير، أصبح نائب حلب بأكملها بتعيين من قانصوه الغوري، لكن كل هذا لم ينتزع شيئًا من أحقاده الدفينة تجاه المماليك، كان يرى أن العثمانيين أقوى وهم المستقبل والمماليك ماض وانتهوا.

بدأ خاير بك مراسلاته لسليم خان الأول يقنعه أن يضم الشام لسلطنته، وظل يحاول أن يثبت له أن الخطر دائمًا يأتي من هناك، ومن حظه أن سليم الأول كان طموحه السيطرة على الشرق.

ومضة:

وتوالت التهديدات من السلطنة العثمانية لسلطان المماليك العجوز قانصوه الغوري الذي أصبح سلطانًا بعد حركات من الاغتيالات لأمراء المماليك واضطراب سياسي داخلي، خصوصًا من بعد اغتيال السلطان الناصر محمد، لكن قنصوة الغوري بالرغم من كل شيء أثبت جدارته لأعوام في الحكم، والوحيد الذي أكمل لأكثر من خمسة عشر عامًا على الكرسي.

وكانت حجة سليم الأول في تهديداته لقانصوه هي أن المماليك ضعاف، وأنهم يتعاونون مع الصفوية الفرس والذين هم ضد العثمانيين وأعدائهم، وأن البرتغاليين على الأبواب، وأنه سوف يجهز حملة عسكرية ويأتي لينقذ الإسلام.

قانصوه حاول كثيرًا أن يصلح بينه وبين سليم الأول ويستميله، لكن كل المحاولات فشلت، في كل الأحوال كان قد قرر أن يقوم بحملة عسكرية لإنهاء الموضوع، وبالتالي بعد كل هذا، الحل كان في المواجهة العسكرية.



ومضة:

قانصوه الغوري جمع جيشًا عظيمًا من مماليك مصروالشام، وتحرك على الشام فعلًا، وعند منطقة تسمى «مرج دابق» بجوار حلب بدأت الحرب.

الحرب كانت قوية جدًا وجيش المماليك كان كبيرًا ومعتادًا على الحرب، وبحركة مفاجئة حقق قانصوه الغوري نصرًا مباغتًا جعل جيش العثمانيين يهتز، لدرجة جعلت سليم الأول يفكر في الانسحاب وطلب الأمان، وكان سيفعل ذلك بالفعل خوفًا من الوقوع في الأسر.

ومضة:

خاير بك نائب حلب، كان المسئول عن ميسرة الجيش بالكامل مع المماليك، وبعد النصر الأول، فجأة انسحب خاير بك بميسرة الجيش كله وانضم للعثمانيين ضد المماليك، ولكن ظل يمشي روج إشاعة أن قانصوه الغوري تم قتله في المعركة، وانتشرت الإشاعة بين صفوف الجيش المملوكي جعلت الجيش يضطرب ويتزعزع وأصبح سهلًا جدًا.

أما عن خاير بك فقد انضم للعثمانيين ودلهم على نقاط ضعف الجيش الذي كان يحفظها عن ظهر قلب، وهنا تحولت المعركة ١٨٠ درجة.

ومضة:

قانصوه الغوري يصرخ وسط الناس أنه لا يزال على قيد الحياة، ويقول للمماليك اثبتوا أنا موجود، برغم سنه الكبيرة إلا أنه كان يحاول بكل جهده، لكن هجوم العثمانيين كان شرسًا، دمويًا، كان يقع من الجيش مئات أمام عين قانصوه.

وفي وسط المعركة وصراخ قانصوه، مسك قلبه، وأغمى عليه ووقع من على حصانه، وتاه وسط القتلى وزحمة المعركة واختفى



للأبد، وانتصر سليم الأول وضم باقي الشام لسلطنته بدون قتال، سلموها له وتشتت الجيش لم يرجع منه إلا القليل.

ومضة:

خاير بك عندما عرف الخبر، جرى مسرعًا على دمشق، وحلق ذقنه وارتدى ملابس مثل العثمانيين وذهب ليستقبل سليم الأول، لكن سليم الأول في النهاية رجل عسكري يحب الشرف ولذلك عندما رأى المنظر اسماه «خاين بك»، ودخل العثمانيون دمشق ودمروها

يقول المؤرخ ابن طولون الصالحى: «وهجم العسكر عليها وعلى ضواحيها للسكنى، فأخرجت أناس كثيرة من بيوتها، ورميت حوائجهم ومؤنهم، وخرج جمع من النساء الحبال، وحصل للناس لم تقع لأهل دمشق وضواحيها قط »

ومضة:

خاير بك لم يسكت، وكان يعمل على إقناع سليم الأول كل يوم أن يكمل ويقضي على المماليك كلها، وأنه لابد أن يكمل ويذهب أيضًا على القاهرة.

وسليم الأول كان ينوي من البداية فعل ذلك فاقتنع وبدأ يتحرك على القاهرة.

ومضة:

عرف المماليك خبر الهزيمة واختفاء قانصوه الغوري، فماذا يفعلون؟ لم يجدوا أفضل من الشاب الذي لم يكمل ٤٠ عامًا، الأمير الأشرف طومان باي ليكون هو السلطان، لكن كيف يصبح سلطانًا بدون جيش؟ ولأن طومان باي كان فارسًا وشجاعًا لم يستسلم لقدره، في هذا الوقت سليم الأول أرسل لطومان باي يعرض عليه التسليم وفي المقابل يصبح حاكم مصر لكن تابع للدولة العثمانية.



طومان باي قتل الرسل الذين كانت معهم الرسالة، ورفض تبعية مصر للعثمانيين، وفي أيام فقط استطاع بذكائه أن يجمع جيشًا ثانيًا في وقت قليل جدًا ووزع مهام وسلاح وحفر خندق كبير في نفس الوقت الذي كان سليم الأول يقترب فيه من القاهرة.

ومضة:

خرج طومان باي بالجيش خارج القاهرة في منطقة اسمها الريدانية «مصر الجديدة والعباسية حاليًا» واستعد للدفاع مع الجيش، لكن الجيش كان متخاذلًا جدًا وخائفًا من المواجهة لدرجة أن كثيرًا منهم كان يأتي الريدانية بالنهار ليظهر نفسه أمام السلطان وفي الليل يذهب القاهرة ينام، أكثر من مرة حاول طومان باي يقنع الجيش يهاجم العثمانيين في الصالحية لأنهم سيكونون مرهقين ويسيطر عليهم التعب من المشوار لكنهم كانوا يرفضون مكتفين بالخندق.

عندما وصل جيش العثمانيين الكبير يوم ٢٣ يناير ١٥١٧م حصلت المعركة التي كانت ظلم على طومان باي وبالرغم من هذا لن يستسلم، كانت معركة شرسة، حارب بشجاعة وقتل الكثير منهم، حتى أن طومان باي قتل الصدر الأعظم للعثمانيين سنان باشا الخادم، بيده، وظنوا ان سليم هو الذي قتل لكن رجع العثمانيين وقاموا بهجمة أكبر ولكفاءة جيش سليم الأول انتصرت في النهاية وهذا جعل طومان باي ينسحب للفسطاط مع من كانوا معه بعد هزيمة جيشه المتخاذل.

ومضة:

خاف سليم الأول من الشاب الشجاع هذا، خوفه جعله يؤخر دخوله القاهرة ثلاثة أيام كاملين من الممكن أن يكون طومان باي الشجاع هذا جهز فيهم لمفاجأة، توقع أي شيء مع هذا الفارس، لكن لما اطمأن أنه اختفى وأن الشيوخ على المنابرى يوم الجمعة يقومون بالدعاء



للسلطان الجديد سليم الأول، في النهاية دخل القاهرة في موكب عظيم، جنود العثمانيين كلهم يرفعون الرايات الحمراء، وفي المقدمة القضاة وفي وسطهم الخليفة العباسي الذي كان لاجئًا عند المماليك وسليم الأول معهم، رافعين رايات مكتوب عليها ثنٱ ب ب ب ثم .

ومضة:

بعد يومين، وبمعجزة كان طومان باي استطاع أن يخطب في الناس ويجمع جيشًا ثانيًا لكن جيش على طريقة العصابات، ولأول مرة الأهالي المصريون يشتركون في المقاومة.

وفي بولاق في المنطقة التي تمركز فيها معسكر العثمانيين، استطاع الثائر البطل بجيشه البسيط أن يهجم مع الأهالي على معسكر سليم الأول، وحرق المعسكر كله، وبدأت معركة شرسة أخرى في بولاق استمرت أربعة أيام، وقتل الجيش من العثمانيين الكثير، لدرجة أن الناس ظنت أن طومان باي عائد للسلطنة مرة أخرى وبدأ الشيوخ في الجمعة التي تليها يدعون للسلطان طومان للمرة الثانية.

لكن العثمانيين لجأوا لوسيلة غير نظيفة، بدأوا الصعود فوق المآذن بالبنادق وضربوا نار على الأهالي وعلى المماليك، الأهالي العزّل.

قتلوا من الأهالي كثيرًا جدًا وانهزمت المقاومة من جديد، لدرجة أن الأهالي ذهبوا لسليم ليعتذروا له على خطأ لم يكن خطأ وطلبوا العفو والسماح وسليم الأول أمر بقتل كل من يرفض الاستسلام، وهرب طومان باي مرة أخرى

برغم إرهاقه وإصابته، جمع جيشًا ثانيًا وحاول مهاجمتهم به على بولاق للمرة الثانية، وسليم الأول كان سيقتل بالفعل في هذه المرة لكن تصدى له بالبنادق والبارود، وهرب طومان باي.

ومضة:



طومان باي بشجاعة غريبة هرب مع بعض المماليك، وبإصرار نزل في منطقة اسمها «البهنا»، جلس هناك يلملم جراحه وتواصل مع أهالي الصعيد وتكلم معهم وخطب فيهم.

انضم الكثير من أهالي الصعيد للجيش بعدما تأثروا بكلامه وجمع منهم طومان باي جيشًا ثانيًا.

لكن برغم كل شيء كان يعلم أن الجيش الذي جمعه ضعيف، فأرسل لسليم الأول ليرى مجال صلح مؤقت، سليم الأول وافق وأرسل رسلًا عثمانيين بشروط الصلح.

لكن الرسل عندما اقتربوا من البهنا المماليك ظنوا أنهم جواسيس فقتلوهم بدون علم طومان باي.

وعندما لم تأت الإجابة لطومان باي، أخذ جيشه الذي جمعه وهو يعرف مصيره، وقرر أن يخوض المعركة من جديد، وكانت آخر المعارك وأكثرها انهاكًا في منطقة تسمى الوردان في الجيزة والتي هي «إمبابة» الآن.

قابل جيش العثمانيين وجهًا لوجه واستغرب طومان باي من قوة الجيش وتفوقه هذه المرة، لأن سليم خان زوده وأضاف أسلحة جديدة، وهناك فرق كبير بين دولة كبيرة وجيش من العوام، لكن رغم كل هذا استمر في المقاومة ببسالة لمدة يومين كاملين في إمبابة، يومين من الضرب والكر والفر والمواجهة والقتل، وبالرغم من كل شيء تم هزمه مرة أخرى، وهرب وفي نيته المقاومة لآخر نفس، هرب على البحيرة، بعيدًا عن سليم خان بمساحة كافية

ومضة:

هرب طومان باي إلى البحيرة بالذات، وسبب اختياره لها هو وجود مناصرين له من العربان، ولأنها بعيدة كل البعد عن العاصمة،



عربان البحيرة يكنّون كل الاحترام والتقدير لطومان باي بالمعنى الحرفي، كان يخصص لهم أموالًا وعملًا وصلاحيات بعد حياة التجوال واللجوء، خصوصًا كبير العربان الشيخ حسن بن مرعي.

طومان باي لجأ إلى الحماية واللجوء لديهم ليخطط من جديد ويستمر في المقاومة للمرة الخامسة، والشيخ حسن بن مرعي استقبله وأقسم لطومان باي أن يحميه لآخر نفس.

لكن حسن بن مرعي طمع في النفوذ والأموال وخانه، خانه مثلما يفعل أي خائن في التاريخ يخون قضية.

جعل العربان تحاوطه من كل جانب وتحبسه، وبعد ذلك قيدوه مثل الدواب الذين يتعاملون معها وسافروا به لبولاق حيث مقر الجيش العثماني وسلموه لأياد العثمانيين بعد معاناة يوم الأول من أبريل لعام ١٥١٧م.

ومضة:

سليم الأول كان معجبًا جدًا بطومان باي الفارس الشجاع برغم كل شيء مثله كمثل سبارتاكوس محرر العبيد، وسليم الأول قائد يقدر البطولة ويكن لها الاحترام حيث إنه في النهاية فارس مغوار فاتح، فلما علم أنهم قد قبضوا عليه طلب أن يقابله.

ولما قابله مدح شجاعته وفروسيته، أكرمه وأكثر في لومه لقتل الرسل الذي أرسلهم له من فترة بغرض الصلح والتسليم قبل حرب إمبابة الأخيرة.

لكن لما طومان باي تكلم، ورفض هذه التهمة بكل شجاعة وقال والله لست أنا، بل واجبي نحو بلدي دفعني لذلك.

سليم الأول أعفى عنه، على أن يكون العفو رسميًا، لكن وسوس خاير بك وآخرون من الحاقدين على المماليك في أذن سليم الأول،



وأقنعوه بعد الوشاية أنه طالما طومان باي على قيد الحياة، لم تنته الثورة أبدًا، وستظل شوكة المماليك في جسد الدولة العثمانية حتى النهاية، ومصر لن تكون أبدًا ولاية طالما هنالك أمل.

انتهت ومضات طومان باي ورجع إلى رشده وهو يتفحّص الحبل المتدلي من فوق باب زويلة، والعامة والمصريين والأهالي يراقبون في صمت وتجلي وترقب وحزن.

الأشرف طومان باي رأى أن نهايته محتومة، وعليه أنه ينهيها بشرف.

نزل من على حصانه بهدوء كبير، ومشى بخطوات واثقة نحو قدره، مشى للحبل ولم تهتز منه شعرة واحدة، صعد فوق الدرجات التي نصبوها له كي يصعد عليها إلى مصيره الحتمي، ونظر خلفه على المصريين نظرة أخيرة.

ظل ينظر إليهم كثيرًا، وكأنه يفكر ماذا سيفعلون من بعده، كأنه ينادي فيهم أن تعالوا أنقذوني، لنقاوم من جديد، لكن لا يوجد مجيب.

بعد لحظات صمت طويلة، بين بكاء صامت وعويل على البطل، قال بصوت عالٍ للمصريين «اقرأوا لي الفاتحة ثلاث مرات واذكروني بالخير» وبعد ذلك استدار إلى الجلاد وقال له اشرع في تنفيذ عملك.

أول ما تدلت جثته من الحبل، صاح المصريون، وصرخوا صرخة واحدة مع بعض اهتزّت لها أرجاء المكان، وصرخت النساء صرخات مدوية.

صرخات من عظمتها أن جعلت سليم الأول الذي كان يرى أنه ينقذ مصر غاضبًا، وبسبب هذا أباح مصر للجنود أن يفعلوا فيها ما يوشاءن لمدة ٢١ يومًا كاملة.



زالت محاسن مصر من أشياء قد كانت بها تزهو على كل القرى.

السلطان سليم الأول بعد إعدام طومان باي والمماليك، عين خاير بك أو «خاين بك» كما اسموه بعدها واليًا على مصر، وترك معه خمسة آلاف جندي عثماني لتتحول مصر إلى ولاية، وكانت خطته تقوم على إضعاف مصر كي لا تصدر منها مشاكل، يلهيهم في مشاكل داخلية، وترك خلفه طوائف التركمان والإنكشارية والأصبهانية والكمولية والعربان يحاربون بعضهم ويتناحرون، وعلى رأسهم خاير بك الذي كان مجنونًا ودمويًا بطبعه.

أما عن حسن بن مرعي فبعدما كرمه السلطان، ظهر على حقيقته وظهرت أطماعه، وتم القبض عليه وسجنه في قلعة الجبل، لكن استطاع بعد سجنه أن يصنع حبلًا مما يورد له من أشياء في سجنه واستطاع أن يهرب من السجن، واختبأ في مخابئ الجبل بعيدًا عن الناس برفقة بعض العربان والخارجين عن القانون، وكانوا يقطعون الطريق بعد هروبهم وقتلوه في المارة.

ذهب الأمير قايتباي الصغير إلى البحيرة وقبض على اخوه حماد الذي حاول ان يخدعه، وارسله إلى خاير ليسجنه.

أما أينال السيفى «كاشف الغربية» استطاع بالمكر أن يستدرج حسن بن مرعي خارج الجبل في سنهور، وسقاه خمرًا حتى سكر، وأعطى الإشارة للجنود العثمانيين فهجموا عليهم وقطع، رؤوسهم، وعلقوها في حصان طومان باي الذي كان سرقه حسن بن مرعي، وعادوا بالحصان على القاهرة.

الناس استقبلت الحصان بالزغاريد والاحتفالات والرقص لأنهم أخيرًا رأوا الانتقام بأعينهم من الذي حصل للبطل طومان باي، ويقال إن بعض المماليك شربوا من دم المجرم حسن بن مرعي احتفالًا



وانتقامًا من خيانته لأشرف من حكم مصر.

أحداث ما بعد طومان باي



مدرسة ومسجد خاير بك

- القادم هذا جزء، نقلًا عن ابن إياس في بدائع الزهور والذي عاصر هذه الفترة وعاشها ورآها بعينيه في الثلاث سنوات التي عاشهم سليم الأول بعد انتصاره سنة ١٥١٧م لحد ١٥٢٠م وفاته، و١٥٢٢ حتى وفاة خاير بك.

- أما العثمانيون بعدما مشى سليم الأول، في نفس السنة طردوا



الناس من بيوتهم وسكنوها هم، وقتلوا من الأهالي حوالي عشرة آلاف شخص، اقتحموا الجامع الأزهر وجامع أحمد بن طولون ومدارس القاهرة وأشعلوا النار في جامع شيخا والبيوت المحيطة به واستمروا في قتل الناس يقتلون في الشوارع لدرجة أن الجثث ملأت الشوارع وكانت في كل مكان هنا وهناك، وفرضوا إتاوة على المصريين وقالوا بوضوح «يا تدفعوا يا تموتوا».

سرقوا الغلال لتأكل خيولهم، والمصريون لم يجدوا الخبز نفسه، ودخلوا على القرى وسرقوا الطيور والمواشي، فكوا الرخام من القلعة وسرقوه، ونهبوا المخطوطات من المدارس والقماش من الأسواق وأرسلوه للعثمانيين.

قبضوا على الصناع والحرفيين والتجار والموظفين وغيرهم مسلمين ومسيحيين وفوقهم أعداد من أعيان مصر والمشايخ والفقهاء ورحلوهم على الإسكندرية ونقلوهم بمراكب غير صالحة للنقل من هناك على قاعدتهم اسطنبول، منها مركب كان عليها ٤٠٠ شخص من الأعيان غرقت.

والذي كان يعمل على توصيلهم هناك كان يعمل بالسخرة، أو يقابلون الشوايشة العثمانيين الذين يقنعونهم أن يرجعوهم مصر، ويأخذوهم في منطقة مقطوعة يسرقونهم ويغتصبون نساءهم وبعد ذلك يقتلونهم.

يقول ابن إياس إنها كانت أكبر نكبة في تاريخ مصر.

ويحكي أن سليم الأول ظل يخرب في مصر ثمانية شهور من قتل وسرقة ونهب واستباحة، إلا عندما جمع مصريين على قدر استطاعته، وجعل الجنود يربطونهم بالحبال من رقابهم بالضرب بالسياط حتى ينقلوا المدافع النحاس من قلعة الجبل لمراكب على النيل



ليرسلها على اسطنبول، ومات في هذه الحادثة الكثير.

وفي هذه الفترة من كثرة السرقة للمصريين استعبدوا وافتقروا لدرجة أنهم كانوا يأكلون الفئران.

أما سليم الأول فخرج من مصر معه ألف جمل محملة ذهبًا وفضة وترك خاير بك يتصرف، ولم يكن همه أي شيء سوى الأموال الذي سيرسلها خاير بك كل شهر للعثمانيين، وأنه لن يحدث تمرد من مصر.

أيضًا أخذ معه الخليفة العباسي الذي كانت له مكانة دينية فضاعت هيبة مصر الدينية، أيضًا أخذ من الخليفة العباسي المتوكل على الله الآثار النبوية التي كان يملكها البيرق والسيف والبردة الخاصين بالرسول ومفاتيح الحرمين الشريفين ولازالوا إلى اليوم في تركيا.

خاير بك الدموي الذي حكم مصر، والذي ترك له سليم الأول ٥٠٠٠ خيال و٥٠٠ ضارب بنادق، أكمل مسيرة الدم بعدما تدهورت أحوال مصر وبعدما خرج منها العمال والفلاحون ولم يتبق فيها زراعة ولا صناعة، وفيها العربان يقطعون الطريق على الفلاحين ويهجمون على البيوت مثلما فعل زعيم العربان عبد الدايم بن بقر شيخ العرب في الشرقية.

خاير بك تفنن في الإعدام بالخازوق، وصنع خازوقًا جديدًا يدخل في الضلوع اسموه «شك البتنجان» وكان يعدم الناس لأتفه الأسباب وكان يصدر أحكامه وهو سكران، ممكن يعدم فلاح لأنه سرق خيارتين مثلًا.

خاير بك حول اللغة العربية للتركية، وتغيرت العملة لعملة تركية، ولغى الأعياد والاحتفالات وأصبحت مصر مظلمة كئيبة.

حتى الحيوانات، خاير بك أصدر قرارًا بأن على كل من يرى كلبًا



يقتله ويعلقه على باب البيت أو المحل، وفي هذا اليوم تم قتل ٥٠٠ كلب مثلًا إلى أن شفع الزيني بركات للكلاب.

بعدها خاير بك أصدر قرارًا بأن كل من يملك كبشًا يصعد به قلعة الجبل ويتركه يصارع كبشًا آخر وينطحه.

خطف البنات والأطفال واغتصابهن أصبح شيئًا عاديًا، يحكي ابن إياس: «حتى قيل إنهم خطفوا امرأة عند سلم المدرسة المؤيدية وقت الظهر، وفسقوا بها جهارًا عند سبيل المؤيدية تحت الدكان الذى يبيع الكعك، والناس ينظرون إليهم وهم يفسقون بها ولم يجسر أحد من الناس أن يخلصها منهم.

خاير بك ابتكر وظيفة اسمها «مفتش الرزق الجيشية» وظيفته يبحث في الدفاتر على من لم يدفع الكثير لجعله يدفع.

وتم فرض ضرائب على الزواج والطلاق لدرجة أن الأيام هذه منعوا الزواج والطلاق نهائيًا لأنهم ليس معهم مال ليدفعوا، أيضًا العثمانيون فرضوا التركية وفرضوا الأطوال والمكاييل التركية على الأسواق والذي يخالف يعدم، عثمنة مصر كانت غرضهم.

أيضًا قهر النساء، منع نزولها الأسواق ومنع حقها في المهر بعد الدخلة، وبعدما كانت متساوية مع الرجل أيام المماليك حولها لعبدة لزوجها يجعلها تأكل بمزاجه، وتم فرض اليشمك والبرقع وهدد المكاري الذي ستركب معه أنثى بالخزوقة.

اختفت المرأة وتم منعها كل شيء، والاغتصاب أصبح علنًا من العثمانيين، ومن يعترض يقتل.

عام ١٥٢٠م مات سليم الأول وحكم مكانه سليمان القانوني، جاء الخبر للمصريين ومشوا يرددون: سبحان مهد الجبابرة.

في سبتمبر من العام ١٥٢٢م خاير بك أصيب باحتباس في البول



وورم، ورقد في السرير لا يتحرك مطلقًا، ولما رقد والوجع قد ازداد وأحس أن الموت يقترب منه فخاف مما فعله في دنيته، وأصبح يوزع صدقات وأموال على الناس وأفرج عن المساجين ووزّع الهدايا وأرادب القمح على الفقراء في الزوايا وظل يطلب من الناس أن تغفر له وتدعوا له في صلاته.

وبعد مرور شهر من العذاب توفي خاير بك في أكتوبر ١٥٢٢م.

المماليك البايات: صحوة المماليك

مرّت الأعوام، مائتا عام كاملتان انتهت فيهما سيرة المماليك، لم يعد للمماليك وجود يذكر فقد انتهت سلطنتهم إلى الأبد، وتحوّلت مصر من سلطنة عظيمة مليئة بالصراعات والانقلابات والسلطة، إلى ولاية تابعة لدولة فتية تسمّى «الدولة العثمانية» ومعها تحولت أحوال مصر من دولة مستقلة إلى تابعة تسترضي الوالي والصدر الأعظم في مقابل تخفيف الأعباء والضرائب والألقاب.

حاول السلاطين العثمانية المتلاحقة تخفيف سلطات المماليك المتتابعة وصغار الأمراء عن مصر، وحاولت الدولة العثمانية فرض سيطرتها بالكامل على الدولة المصرية بتغيير اللغة والثقافة والمكاييل، ولكنها مع الوقت تخلّت تدريجيًا عن تلك الفكرة معلنة أنها ستتغاضى عن بعض الصلاحيات لفلول المماليك حيث إنهم الأدرى بدهاليز الحكم في مصر، وتركوا حكم الأقاليم والأحياء والتجارة إلى المماليك مع التعهد بإرسال الجباية سنويًا إلى الأستانة وتظل مصر تحت الولاية



العثمانية ما حييت، وقد تم.

مرّت الأعوام على هذا الحال، حال المماليك المتبقين منذ دخول سليم خان إلى الأراضي المصرية كما هو، يكنّون الولاء للباب العالي، يدفعون ما كتب عليهم، يحكمون بعض الأقاليم والثغور وهكذا الحال، وبين المماليك وبين أنفسهم كانوا يضمرون لبعضهم البعض غيرة وكراهية جعلتهم يتآمرون على تعظيم صلاحياتهم وإكثارها ولو على حساب البعض، مع حنين إلى الماضي حينما كانوا سلاطين يمتلكون الجيوش والأسلحة والتجارة، كان الحال هو الحال حتى العام ١٧١٦م.

كانت أجواء السعادة والفرح تملأ المكان، اليوم هو يوم سعيد على بيت «القزدوغلي» المملوكي الشهير في مصر حيث إن هناك عضوة جديدة سوف تنضم للعائلة.

قالوا وقتها أن اسمها أمينة، كانت جميلة وذات حسب، فهي ابنة حسن جرباجي القنداجي، اختارها الأمير المملوكي حسن كتخدا القزدوغلي زوجة له وكان هذا بمثابة الخبر المفرح في الأجواء إلا أنه لم يكن يتوقع أحد أن تلك الزيجة ربما تكون الباب الذي لم يقفل أبدًا.

كان مصطفى كتخدا القزدوغلي، مؤسس منزل القزدوغلي الشهير في القاهرة لديه مملوكان مفضلان وهم أحسن وسليمان كتخدا، فيما كان لحسن مملوكان مفضلان أيضًا هما عثمان كتخدا وسليمان جاويش، وكان لسليمان كتخدا بدوره مملوكًا مفضلًا هو إبراهيم كتخدا

تزوج الأمير حسن من أمينة وعاشوا حياة رغدة في بداياتها، وتكللت ثمرة زواجهم بولد سمياه عبد الرحمن.

ومرت الأيام على الزوجين والولد، لكن القدر لم يكن ليترك الأسرة مكتملة ليلقى حسن وجه ربه. أمينة تعيش وحيدة مع ابنها بعد وفاة حسن، أمر لا يرضي مملوكيه الوفيين، ليتزوجها عثمان كتخدا القزدوغلي.



كان عثمان قد أصبح في ذلك التوقيت أقوى أمراء المماليك، وكان يرأس المستحفظان، والتي تتكون من أوجقات الأقاليم، أو الوحدات العسكرية التي تحمي الأسوار، موقع شديد الأهمية في مصر العثمانية، موقعًا يثير لعاب الكثيرين ويلفت أنظار المتآمرين، وبزواجه من أمينة أصبح عثمان زوج أم عبد الرحمن ليحتضنه ويجعله رسميًا وريثه.

كان طلب صديق عثمان، صالح كاشف، أن يترقى لرتبة سنجق بك، أي حاكم مقاطعة، هي شرارة وبداية لمؤامرة كبرى يقودها والي مصر العثماني في ذلك التوقيت من عام ١٧٣٦، بكير باشا، للحد من سلطة المماليك في مصر، وكان «عثمان» شريكًا في المؤامرة لوضع صديقه على الكرسي المرغوب، غير مدرك أن المثل القائل من حفر حفرة لأخيه وقع فيها سينطبق عليه تمامًا، كانت الثواني فقط تفصله عن الوقوع في الحفرة.

الاتفاق تم وها قد حان موعد التنفيذ، الهدف الأول ثلاثة أمراء من المماليك يقفون في طريق الكاشف لتولي المنصب، المهمة هي التخلص منهم إلى الأبد، المصيدة قد أعدت بالفعل وعثمان في موقع الحدث يستدرج الأمراء إلى مرمى النيران، وفي وسط الظلام، يدوي صوت الرصاص يمينًا ويسارًا، يصم الآذان والفوضى تعم في أرجاء المكان، الثواني تمر كالدهر على المحيطين لكن سرعان ما ساد الصمت في محيط الموقع، انتهى كل شيء بالنسبة للمماليك الثلاثة، المهمة نفذت بنجاح، لكن نظرة واحدة على القتلى كانت لتكشف مشكلة كبيرة لمنفذي العملية، لقد أصابت رصاصاتهم شخصًا خطأ، لقد أصابت رصاصاتهم الأمير عثمان كتخدا منفذ العملية والمخطط لها، وحينما استجوبوا منفذي العملية، برروا بأنه الظلام الذي منعهم من التفريق بين الهدف الحقيقي وبين الضحية.



هكذا قال منفذو العملية لوالي مصر، الذي استمرت مؤامرته بعد مقتل عثمان وأسفرت في النهاية عن قتل ١١ أميرًا من أمراء المماليك، وقد نعى القنصل الفرنسي عثمان قائلًا إنه كان الرجل الوحيد القادر على الحكم في المملكة وقتها.

راح عثمان، وترك خلفه ثروة كبيرة جمعها من التجارة، هو الذي كان على علاقة قوية جدًا بأغنى العائلات التجارية حينها، عائلة الشرايبية، كذلك كان عثمان قد شيد مسجدًا بحي الأزبكية، انتهى من بنائه قبل عام واحد من مقتله، وتضمن محيط المسجد أيضًا كتاب سبيل، وربع للعمال والفنيين بخمسة غرف للمعيشة، بالإضافة إلى حمام وساقية، وكان منزل عثمان على البِركة، تجلس فيه أمينة وابنها بعد أن أصبحت هي المسؤولة والوريثة لدخل الوقف.

كانت أمينة حاملًا في طفلة من زوجها المقتول، ولدتها عقب مقتله، لكنها لم تظل في أحزانها على رحيل والد ابنتها كثيرًا، بل نفضت عنها ثوب الحداد سريعًا وتزوجت من المملوك الأسبق لزوجها الأول، سليمان جاويش.

لكن زواج أمينة من جاويش لم يقها ضربة جديدة لم تتوقعها هي وابنها من أحد رجال زوجها في المستحفظان وأحد أصحاب الرتب العالية، سليمان جخدار، الذي استولى على بعض أملاك زوجها المقتول عثمان كتخدا، بالإضافة إلى محظيته أو (عشيقته) شويكار

حل عام ١٧٣٩م، قافلة الحج تخرج وعلى رأسها سليمان جخدار قائدًا للحرس، حيث إن جخدار لم يرغب في مصاحبة القافلة نظرًا لمرضه، وقد صحبته في تلك الرحلة شويكار، والتي عرفت على أنها زوجته.

وعندما وصلت القافلة بركة الحج، اشتد المرض على جخدار



ليفارق الحياة، وبجواره سليمان جاويش، زوج أمينة، الذي سارع مع وفاة قائد الحرس بالذهاب إلى قائد القافلة، أو من أطلق عليه أمير الحج، عثمان بك ذو الفقار، قائلًا له إن عبدالرحمن بن عثمان كتخدا القزدوغلي هو وريث جخدار، ليعود حق الابن في ممتلكات أبيه المسلوبة، ويعم بعض السلام بيت القزدوغلي، ذلك الذي انقلب رأسًا على عقب مع دخول أمينة في رحابه، وتبقى نقطة التحول في حياة ابنة حسن جرباجي القنداجي المؤامرة الكبرى التي شارك فيها زوجها الثاني وراح ضحيتها، أو ما عرفت لاحقًا بمذبحة ١٧٣٦م والتي ستكون بعدها هي الشرارة التي ستمثّل الصحوة الأخيرة للمماليك في مصر، والتي على أثرها سيظهر جيل من المماليك الذي سيعيد من أمجاد المماليك بعضها.

المماليك البايات: علي بك الكبير



في العام ١٥١٧م انتهت دولة سلطنة المماليك الجراكسة إلى الأبد، حاول السلطان طومان باي أن يقاوم التقدم العثماني لآخر نفس، حاول



مرة واثنتين وثلاثة، لكن قوات سليم الأول كانت أقوى منه، وتم إعدامه أمام المصريين والشوام، وبدأت حقبة جديدة من التاريخ الشرق أوسطي، بتحول مصر من سلطنة لإمارة تابعة لبني عثمان في تركيا

المشكلة ان العثمانيين لم يكن يهمهم طريقة الحكم في مصر ولا غيرها، المهم الجباية التي تدفع وترسل على الأستانة، وهذا خلق حالة من الفراغ السياسي في مصر تحديدًا والتي لم يكن فيها أحد يحكم والأحوال لا تسر أحدًا.

العثمانيون في البداية تركوا واليًا اسمه «خاير بك» في الأصل من مماليك مصر ولكنه خائن، لم يستمر سنتين، صنع فيهما مجازر ومصائب ومات.

ولما كان المماليك الأوائل انتهوا، والعثمانيون ليسوا على دراية بطرق الحكم في مصر ولا على علم بخباياها، ولم يكن يهمهم غير الأموال الآتية، اضطروا أن يبقوا على باقي المماليك الذين لم يموتوا وقت الغزو، وهم صغار المماليك وليسوا الأمراء الكبار الذين ماتوا، وجعلوهم مسئولين في مصر.

الحكم في مصر كان إقطاعات وقتها، كل مملوكي معه بعض من المماليك يتحكم في قطعة بحجم المحافظة ويحكمها، ووالي عثماني مجرد صورة لا يفعل سوى لم الجباية وإرسالها على الأستانة، وظل الحال على ذلك، اضطراب سياسي وفقر فقط.

وهذا كان حال مصر وبعض الدول المجاورة وقتها.

المهم، بعيد عن الشرق الأوسط، بعيد ناحية روسيا عند البحر الأسود، كانت قبائل القوقاز يعيشون في بيئة ريفية هادئة جدًا، أراض واسعة وهدوء نسبي.

هناك كانت توجد مدينة اسمها (أماسا) قرب روسيا، كانت تحت



النفوذ العثماني وقتها وكان يعيش فيها جزء من هذه القبائل، مدينة متطرفة وفقيرة وأهلها مسالمون، وفيهم طفل صغير مواليد ١٧٢٨م اسمه «يوسف بن داود».

يوسف كان مسيحي أرثوذوكسي، أبوه كان من رعاة الكنيسة في بلدته في طريقه للباباوية، وكان يعلّم ابنه يوسف حتى يكبر ويصبح رجل دين مثله.

أما عن يوسف، فكان ذكيًا جدًا وينتبه لدروسه وكان سريع الفهم، كما أنه كان رياضيًا جدًا من قبل أن يكبر حتى، والمستقبل كان جميلًا ومشرقًا.

كبر يوسف، وفي يوم من أيام سنة ١٧٤٣م كان يوسف يبلغ من العمر حوالي خمسة عشر عامًا، وفي يوم كان يلعب مع أصحابه قرب الغابة القريبة من قريته وبيته، وهم يجرون ويختبئون خلف بعضهم، ظهر أمامهم قطاع الطرق.

للعلم، في هذه الفترة البلاد كانت فقيرة وكانت تنتشر فيها الجريمة والخطف للأطفال الصغارة، خصوصًا أن تجارة الرقيق «المماليك» في الشرق الأوسط هي أكبر تجارة في المنطقة وأغلاها، فكان قطاع الطرق يذهبون لقرى القوقاز القريبة من روسيا لخطف الأطفال الجميلة ويشحنوهم على هناك لكي يبيعوهم.

المهم، أن يوسف هذا كان أبيض اللون ووسيمًا، فقرر قطاع الطرق أن يخطفوه ويشحنوه على الشرق ليتحول لرق ويباع في السوق لأن نوعيته كانت هي المطلوبة.

بعدما خطفوه، باعوه لتاجر عبيد مشهور هناك اسمه «كرد أحمد» والذي كان يرسل العبيد للسفر على الشرق، فأخذه وشحنه متقيّدًا بسلسلة على مركب حتى الإسكندرية.

وعندما وصل الإسكندرية عند الجمرك، اثنان من اليهود اسمهما



اسحاق ويوسف واللذين كانا يديران الجمرك، أعجبا بيوسف، فقررا شرائه من كرد أحمد قبل أن ينزل السوق، ربما رأوا فيه شيئًا جميلًا.

ولأن تجارة الرقيق كانت الأشهر والأكثر قابلية في الشرق، فإنك تهدي عبدًا شكله جميل لأمير أو ملكًا أو سلطانًا هو قمة العظمة.

فأخذوا يوسف، وذهبوا إلى أمير مشهور جدًا في الإسكندرية اسمه «إبراهيم بك كتخدا» وهدوه له كنوع من المحبة وكي يرضى عنهم.

الأمير إبراهيم بك كتخدا فرح به جدًا لأنه لم يكن ينجب، وقرر أن يهتم به ويعلمه عربي وتركي ويعلمه قرآن وعلم وفروسية وعلوم الحرب، وقرر يسميه «علي» على اسم الصحابي الجليل علي بن أبي طالب.

علي الذي كان اسمه يوسف قد قبل بالأمر الواقع مضطرًا، وقبل بُعده عن أبيه وقرر أن يجتهد في مكانه الجديد كمملوك لأمير طيب، فكان متميزًا جدًا في كل شيء تعلمه، فارس ومحارب متميز ينشّن بالبنادق ويبارز بالسيف ويرمي الحراب ونابغة، فعينه وقتها أمين مخزن السلاح.

في يوم من الأيام، إبراهيم بك كان كتخدا الإنكشارية، بمعنى رئيس العسكر أو لواء جيش، وكان مسئولًا عن توصيل المحمل المصري الذي فيه كسوة الكعبة للحجاز، لأنه كان يثق فيه، أخذ إبراهيم بك علي المملوك معه وسط العسكر في اتجاههم لمكة.

المحمل هذا كان احتفالًا كبيرًا سنويًا يخرج من مصر بعدما يلف القاهرة كلها بالطبل والزمر والاحتفالات والزغاريد وتوزيع الهدايا والعروض وغيره لأنه في النهاية يخرج للحجاز ليغطي الكعبة بكسوة جديدة قبل موسم الحج.

وهم في الطريق، في نصف الطريق بالضبط، خرج عليهم العربان قطاع الطرق ليسرقوا المحمل بالهودج بالهدايا والعطايا التي



كانت بحوزتهم فيه، فارتبك عسكر المحمل، وتركوا السلاح، وكان العربان على وشك أن يقتلوا إبراهيم بك كتخدا ويسرقوا المحمل بأكمله.

لكن علي بك فجأة خطف سيفًا من على الأرض، وقفز وسط العربان وبارزهم بشجاعة غريبة بمفرده، يمين يسار فوق تحت، حتى قضى على نصفهم بمفرده والباقي هربوا، ونجح علي أن ينتصر عليهم بمفرده بدون مساعدة، لدرجة أنه من كثرة الفرحة التي فيهم اسموه «علي الجن» لأنه كان يبارز بطريقة ساحرة تشبه الجن أو «بلوط قبان» بالتركي.

من وقتها، بدأ اسم علي يظهر في المسرح السياسي، أكبر من مجرد مملوك.

مر الوقت، وإبراهيم بك أصبح واحدًا من كبار المماليك الذين لهم نفوذ في مصر، كان مسئولًا عن إدارة الجيش عسكر الوقت، ومعه في نفس مستواه رضوان بك كان يدير الشئون المدنية، والاثنان كانا يحكمان مصر فعليًا.

في هذا الوقت علي كان متميزًا جدًا في مكانه، أصبح يخرج للمعارك ينتصر فيها لأستاذه إبراهيم بك، الثقة بينهما زادت جدًا، بالرغم أن علي كان صغيرًا في السن إلا أن كفاءته كانت تتعدى أكبر الكفاءات في الجيش، لدرجة أنه ذهب في مرة يحارب بعدد قليل جدًا وانتصر انتصار ساحق بالذكاء، ولما رجع من المعركة من كثرة فرحة إبراهيم بك به، قرر أن يسعى له في البكوية ليصبح بك.

لكن عندما كان الحاقدون من الذين كانوا حوله سمعوا أن هذا الصغير سيصبح بك، وقفوا له بالمرصاد، لن يأخذها لأنه كذا وكذا وكذا، ومن هنا لهنا فشل إبراهيم بك في إنهاء الأمر، ولم يعرف أن يأتي غير برتبة أصغر اسمها «كاشف» وأصبح كاشف شرقية وتم



تسجيلها في الرزنامة «الدفاتر» الرسمية.

مرت سنين تحديدًا لسنة ١٧٤٩م ومات إبراهيم بك، وبعد وفاته ترقى علي وأصبح رئيس السنجقية وحد البكوية مكانه وأصبح لقبه «على بك مير اللواء فازطاغلى» بمعنى حاكم الأقاليم، وهذا كان شرفًا كبيرًا جدا لأي مملوكي وقتها.

حاول الأمراء أن يأتي له الإمارة «يصبح أمير» ليصبح بعد ذلك شيخ البلد وهذه أقصى ترقية ممكن أن يأخذها مملوكي ومعناها «الحاكم العام لمصر» وحاولوا أن يتوسطوا له ليصبح أميرًا، لكنه رفض وقال: لن آخذها بالواسطة إنما بسيفي.

ظل علي بك في عمله بالتجارة يجمع الأموال ويشتري مماليك وسلاحًا لأكثر من ثمانية أعوام، يكوّن علاقات في الداخل والخارج وعلاقات مع مشايخ الأزهر، ويشتري مماليك ويدرّبها، إلى أن أمسى لديه جيش عرمرم من المماليك، وبدأ في طريق الترقية بالحرب والسيف.

دخل في معارك بسط نفوذ بجيشه، وأصبح ينتصر هنا وهناك إلى سنة ١٧٦٣م استطاع أن يصل لمنصب شيخ البلد، وشيوخ الأزهر وقفوا معه وبايعوه أمام من يكرهونه، ولما اتحد عليه الحاقدون هرب علي إلى الصعيد وبعدها الحجاز وبعدها القدس، لكن الذين في صفه بقيادة الكتخدا عبد الرحمن بك استطاعوا أن يقنعوه بالعودة، ولما عاد كان رضوان بك قد توفي

فاقترح عبد الرحمن كتخدا الذي كان معه أن يصبح أميرًا للحج، ووافق الكل وأصبح علي بك أمير الحج وعمل محمل مصري واحتفال مهيب «هذا الاحتفال كان شيئًا مهمًا» وخرج للحجاز بعد احتفال ضخم وناجح جدًا فلما رجع مصر أصبح في نظر الناس والأمراء أهم شخص في مصر وأكبر رأس فيها، ومماليكه بدأت أسماؤهم تلمع مثل



إسماعيل بك ومحمد بك أبو الدهب وحسن بك الجداوي ومراد بك وإبراهيم بك.

بسبب نجاح المحمل، طلب منه أن ينظم فرحًا لبنت إبراهيم بك أستاذه والتي كان اسمها هانم والتي كانت تتزوج واحدًا من مماليك أبيها، فأحب علي بك أن يجامل وصرف آلاف وعمل فرح هو أعظم فرح في عصره، الناس ظلت تحكي وتتحاكى عن ليالي الفرح، ومن كبر الفرح، الناس أسمت علي بك من وقتها باسم «علي بك الكبير».

وعندما أصبح علي بك الكبير أكبر رأس في البلد، قرر أن الأخطار انتهت ولا أحد يوقفه ووصل إلى ما يريد، وقرر أن يبحث عن أبيه الحقيقي وأهله في أماسا روسيا.

فأرسل طنطاوي بك إلى الأستانة بالجزية السنوية التي كانت تدفع كل سنة للعثمانيين، وأمره أنه بعدما يصل اسطنبول يرسل أحد أهل ثقة على قريته في أماسا يبحث عن أهله ولو وجدهم يأتي بهم معه.

وفعلًا طنطاوي بك ذهب، وعندما وصل أمر خازنداره «مساعده في مهام الجزية» أن يذهب أماسا ويسأل.

الخازندار ذهب هناك وسأل في كل مكان، ذهب الكنيسة، ووجد أن أباه «داود» أصبح قسيسًا، فذهب له وحكى كل شيء عن يوسف ابنه الذي أصبح علي وأصبح شيخ البلد وأنه يريد رؤيتهم.

القسيس داود وافق أن يسافر معه، وأخذ معه زوجته التي تزوجها بعد أم علي، وأخذ أخت علي يوهود وحفيده على أسطنبول ومنها على الإسكندرية وبعدها القاهرة.

ووصلت الأخبار لعلي بك الكبير الذي جهز استقبال ملوكي من الحاشية لأهله وأبوه تحديدًا، ولما علي رآه نزل على ركبتيه وقبل يديه، واحتفل بهم وبعد ذلك أخذهم إلى قصره في الأزبكية، وأعطى



المصريين الشهر كله احتفالات بمناسبة عودة علي بك لأهله الحقيقيين.

ومن هنا بدأ علي بك الكبير في ترسيخ مملكته الجديدة التي حاول فيها فصل مصر عن الخلافة العثمانية في الأستانة والتي ستكون علامة فارقة في تاريخ مصر بعدها.

محمد بك أبو الدهب

في تلك الفترة، برز مملوك علي بك الكبير والمفضّل له «محمد بك أبو الدهب»، سمّي أبو الدهب لأنه كان يوزع الدهب على الناس في رحلة الحج بكرم زائد وبكثافة.

في تلك الفترة كان علي بك الكبير قد اعتلى عرش مصر تحت مسمّى والي، مستغلًا فترة الحرب بين روسيا والعثمانيين، ولم تكن نتائجها في صالح العثمانيين الذين منوا بخسائر فادحة، فاستصدر أمرًا من الديوان بعزل الوالي العثماني، وتولى هو منصب القائمقام بدلًا من الوالي المخلوع في الحادي عشر من ديسمبر لعام ١٧٦٨م.

واتبع ذلك بمنعه قدوم الولاة الأتراك إلى القاهرة، فلم ترسل الدولة أحدًا منهم على مدى أربع سنوات، كما أوقف إرسال الأموال المقررة سنويًا على مصر إلى الدولة العثمانية ابتداءً من سنة (١١٨٢هـ = ١٧٦٨م).

وفي أثناء ذلك نجح في أن يسيطر على أحوال مصر، في الوجهين البحري والقبلي، وأن يقضي على الفتن هناك ويضرب بيد من حديد على



الخارجين عليه في الشرقية والقليوبية والبحيرة، ثم قضى على نفوذ شيخ العرب همام بن يوسف الهواري زعيم الصعيد، وكان يلجأ إليه كثير من منافسي علي بك الكبير طالبين حمايته وإمداده بالمال والسلاح، ولم يلبث أن توفي شيخ العرب همام وزالت دولته من بلاد الصعيد كأن لم تكن، وخلصت مصر بوجهيها البحري والقبلي لعلي بك وأتباعه.

لم يكتف علي بك الكبير بأن بسط نفوذه وسلطانه على مصر فقط، بل تطلع إلى ضم الحجاز لتأمين الحج للمصريين والمغاربة والشوام ممن يسافرون إلى الحج كل عام، وتطلع إلى إحياء تجارة مصر مع الهند بالاستيلاء على ميناء جدة، وجعله مستودعًا لتجارة الهند والشرق الأقصى، فبهذه التطلعات يعيد الثروة والغنى التي فقدتها مصر من جراء تحول تجارة الشرق إلى طريق الرجاء الصالح.

وانتهز علي بك فرصة النزاع الذي دار بين اثنين من أشراف الحجاز حول الحكم، فتدخل لصالح أحدهما وأرسل حملة عسكرية يقودها محمد بك أبو الدهب مملوكه المفضّل يونيو عام ١٧٧٠م إلى هناك فنجحت في مهمتها، ونودي بـ «علي بك الكبير» في الحرمين الشريفين سلطان مصر وخاقان البحرين، وذكر اسمه ولقبه على منابر المساجد في الحجاز كلها.

كان علي بك الكبير ذكيًا إلى حد ما، ونجح في إرجاع سلطة المماليك إلى العرش مجددًا كأوّل من نجح فعليًا في الاستقلال بمصر وتوسيع الرقعة الجغرافية فيها.

وقد شجع نجاح حملة الحجاز علي بك الكبير على أن يتطلع إلى إرسال حملة إلى بلاد الشام منتهزًا سوء أحوالها وتعدد طوائفها، واستنجاد صديقه والي عكا «ظاهر العمر» به الذي نجح في أن يمد نفوذه في جنوب سوريا، وكان هو الآخر يسعى إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية.



وقبل أن يمضي علي بك في حملته على الشام اتصل بروسيا أعدى أعداء الدولة العثمانية وطرف النزاع والحرب معها، وعرض عليها أن يعقد معها معاهدة تحالف وصداقة، وأن تزوده بالأسلحة والعسكريين المدربين، وأن يكون الأسطول الروسي حاميًا للشواطئ المصرية ضد أية محاولات هجومية من قبل الدولة العثمانية.

وتمت هذه الاتصالات مع قائد الأسطول الروسي الذي كان مرابطًا في البحر المتوسط، وقد رد القائد الروسي على هذه الطلبات التي طرحها علي بك ردًا جميلًا، ووعده بأنه سوف يرجع إلى حكومته وإلى الإمبراطورة كاترين إمبراطورة روسيا حينذاك بشأنها.

ولم يكد محمد أبو الدهب يعود بحملته الظافرة من الحجاز حتى سيره علي بك، على رأس جيش كبير يتألف من أكثر من أربعين ألف جندي ليزحف على الشام، وكان السبب الذي أعلنه علي بك من وراء حملته على الشام هو إيواء عثمان العظم والي دمشق لخصوم علي بك وأعدائه وإعدادهم للإغارة على مصر، وأن هذا الوالي يسيء الحكم في دمشق مما جعل السوريين يتذمرون من حكمه.

وقد كلفت هذه الحملة الخزانة المصرية أعباء مالية مهولة، تحمل تكاليفها الشعب المصري الذي فرضت عليه ضرائب باهظة أثقلت كاهله كالعادة وقادتهم إلى الفقر، وأطلقت صرخاته المكتومة لتحقيق رغبات أنانية لولاة طامحين في بناء مجد زائف يزول بموتهم.

وتمكن محمد أبو الدهب من تحقيق انتصارات هائلة، فاستولى على غزة والرملة، ولما اقتربت قواته من بيت المقدس خرج إليه حاكمها وقضاتها وأعيانها ورحبوا بقدوم الحملة المصرية فدخلها دون قتال يذكر.

واستسلمت يافا بعد حصار دام شهرين، ثم انضمت قوات الشيخ



ضاهر السوري إلى القوات المصرية ففتحوا صيدا، ولم يبق أمامهم سوى دمشق، والتقى الجيشان الحليفان بالجيش العثماني الذي لم يستطع المواجهة والصمود ولقي هزيمة كبيرة، ودخل محمد أبو الدهب دمشق في السادس من يونيو ١٧٧١م ونجح في ضمها هي أيضًا تحت لواء علي بك الكبير.

وفي الوقت الذي كان فيه علي بك الكبير يحتفل بهذا النصر الكبير ويقيم الاحتفالات بضم سورية إلى مصر، وتزينت القاهرة لهذه المناسبة، كان محمد أبو الدهب يتوقف عن الزحف ويستعد للرجوع إلى القاهرة رغبة في السيطرة على ملك مصر باعتباره صاحب فضل في التمكين والسيطرة لعلي بك الكبير ونجاح الدولة العثمانية في استمالة أبي الدهب وإغرائه بحكم مصر إذا خرج على سيده وخانه.

في هذه الأثناء استصدر السلطان العثماني فتوى من قاضي القضاة والمفتي الأعظم باعتبار علي بك ورجاله وحلفائه وأنصاره بغاة خارجين على الدولة يجب قتلهم أينما وجدوا، وزاد من تأثير هذه الفتوى اتصال علي بك الكبير بروسيا، وهي دولة مسيحية في حالة حرب مع دولة الخلافة العثمانية.

عاد أبو الدهب سريعًا إلى مصر، وسحب في طريق عودته جميع الحاميات التي كان قد أقامها في البلاد المفتوحة، وبدأ يحارب علي بك الكبير نفسه، وتمرّد على قراراته، وتأكد علي بك من خيانة ولاء أبي الدهب له بعد رفضه العودة إلى فلسطين.

وعجز عن اتخاذ قرار صارم ضد تابعه ومملوكه أبو الدهب الذي خرج عليه، ولم يعد هناك مفر من الصدام بين الرجلين، وحاربوا بعض، وبالطبع كانت الغلبة لمن يملك الجيوش كلها وهو قاد الجيوش محمد بك أبو الدهب، واضطر علي بك الكبير إلى مغادرة القاهرة



هربًا والالتجاء إلى صديقه «ظاهر العمر» ومعه ثروته الضخمة وسبعة آلاف من فرسانه ومشاته، وبدأ في تنظيم قواته والاتصال بقائد الأسطول الروسي الذي راح يمنيه بقرب وصول المساعدات، لكن هذه الوعود تمثّلت عن ثلاثة مدافع وبضعة ضباط وعدد من البنادق وهو ما كان مخيّبًا لآمال علي بك الكبير الذي أصابه الاكتئاب.

قرر علي بك الكبير العودة إلى مصر على عجل بلا أدنى أسباب على غير رغبة ضاهر العمر الذي نصحه بالتريث والتمهل، حتى إذا وصل إلى الصالحية بالشرقية، التقى بجيش أبي الدهب في السادس والعشرين من أبريل لعام ١٧٧٣م في معركة كان النصر فيها حليف أبو الدهب، وأصيب علي بك في هذه المعركة بجراح، ونقل إلى القاهرة، حيث قدم له مملوكه أبو الدهب الرعاية الطبية اللازمة بالرغم من كل شيء لكنه توفي متأثّرًا بجراحه في الثامن من مايو لعام ١٧٧٣م

تولى محمد بك أبو الدهب مقاليد الحكم من بعده، ونصب نفسه شيخًا للبلد (سنجق بك القاهرة) وبدأ في الشروع في حكمه على مصر.

عرض أبو الدهب على الباب العالي العثماني في الأستانة إعادة مصر إلى الولاية العثمانية، وطلب الإذن بالقضاء على ظاهر العمر في سورية بحجة خروجه على الدولة وتحالفه مع أعدائها الروس.

وأجابته الدولة العثمانية إلى طلبه وثبتته على مصر وأنعمت عليه بلقب باشا.

وعلى أثر هذا قاد محمد بك أبو الدهب جيشًا كبيرًا إلى فلسطين ١٧٧٥م ففتح يافا بالسيف وكان للسيف الكلمة الأخيرة في إسكات ألسنة المعارضين، يقال إنه بنى من رؤوس القتلى صوامع على غرار ما كان يفعله تيمورلنك بالمسلمين، استخدم ضدهم الشدة وعلى يديه

أسيلت بحور الدماء في أرجاء الدولة بشكل بشع.

وقد أثارت فعلته بيافا الفزع في الشام فتخلى الأمراء عن ظاهر العمر فاضطر إلى ترك عكا والاختباء بالمناطق الجبلية المجاورة له.

ودانت فلسطين لمحمد بك أبي الدهب، وقدم له الأمراء الطاعة والولاء، ودمر الحصون والقلاع التي بناها ظاهر العمر وأهمها قلعة دير حنا ودير مار إلياس.

لم يطل المقام بأبي الدهب في فلسطين ووافاه الأجل في النهاية في عام ١٧٧٥ قبل أن يقتل ظاهر العمر ويعثر عليه.

ويقال إنه قد مات مسمومًا بإيعاذ من ظاهر عمر الذي رشى طبّاخ محمد بك أبو الدهب لكي يدس له السم في الطعام للتخلّص منه، وتوفي في النهاية ليصعد نجم مملوكين اثنين من مماليكه في حكم مصر.

المماليك البايات: إبراهيم بك ومراد بك

تتشابه قصة المملوكين الأكثر نفوذًا من بعد علي بك الكبير ومحمد بك أبو الدهب كثيرًا، حيث إن تاريخهم يتقابل تقريبًا في كل شيء من حيث ظروف النشأة وتدرجاتهم في المناصب وحتى تعاونهم وتقاسمهم حكم مصر يدًا ضد يد، فالبرغم من نشأتهم وصداقتهم التي ترعرعوا عليها إلا أن الأطماع في الاستيلاء على الحكم في ظل تلك الظروف العصيبة التي كانت تعيشها مصر، حالت بينهم وبين صداقتهم إلى الأبد، فتحوّلت الصداقة والشراكة إلى منافسة شرسة بينهم في الاستيلاء على الحكم.

ولد إبراهيم بك في العام ١٧٣٥م في جورجيا تحت اسم إبرام



شينجيكاشفيلي تحديدًا في قرية مارطقوب، جاء ضمن المخطوفين من شرق أوروبا لعرضهم كعبيد للبيع في أسواق مصر فاشتراه الأمير محمد أبو الدهب ثم أعتقه وزوجه من أخته، ثم أصبح أحد البكوات الأربعة والعشرين أصحاب النفوذ.

زاد نفوذه في أثناء حكم محمد أبو الدهب فأصبح دفتردار العام ١٧٧٣م ثم شيخًا للبلد، ولما مات أبو الدهب في عكا، ورث إبراهيم ثروته ونفوذه.

اقتسم إبراهيم حكم مصر مع مراد بك أحد أمراء أبى الدهب المقربين أيضًا، فصار إبراهيم شيخًا للبلد يقوم بالشئون الإدارية، بينما كان يقوم مراد بشئون الجيش، ظل حكمهما المشترك قائمًا حتى مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر ١٧٩٨م

أما عن مراد بك أحد مماليك علي بك الكبير، وكان من قادة جيوش علي بك التي ذهبت إلى الشام لضمها إلى الدولة المصرية، ولكنه خان سيده، وقاتل علي بك الكبير إلى أن مات على يد قوات محمد بك أبو الدهب، الذي أصبح الحاكم لمصر وسعى لتثبيت الحكم العثماني واسترضاء السلطان العثماني ولكنه لم يمكث إلا ثلاثة أعوام مات بعدها فجأة، ثم تولى إبراهيم بك الحكم وتقاسم بعض سلطاته مع مراد دون الدخول تحت طاعة الباشا الذي عينه السلطان العثماني..

كانت شخصية مراد بك هي الأقوى والأكثر خبثًا بين الاثنين، تولّد بينهما صراع سياسي دائم كان السبب في سقوط مصر في النهاية على يد الفرنسيين.

في فترة حكمه المشترك مع إبراهيم بك، عكف مراد بك على لذاته وشهواته وقضى أكثر زمانه خارج المدينة مرة بقصره الذي أنشأه بالروضة وأخرى بجزيرة الذهب وأخرى بقصر قايماز جهة



العادلية كل ذلك مع مشاركته لإبراهيم بك في الأحكام والنقض والإبرام والإيراد والإصدار ومقاسمة الأموال والدواوين وتقليد مماليكه وأتباعه الولايات والمناصب وأخذ في بذل الأموال وإنفاقها على أمرائه وأتباعه.

فانضم إليه بعض أمراء علي بك وغيره ممن مات أسيادهم كعلي بك المعروف بالملط وسليمان بك الشابوري وعبد الرحمن بك عثمان فأكرمهم وواساهم ورخص لمماليكه في هفواتهم وسامحهم في زلاتهم وحظي عنده كل جريء غشوم عسوف ذميم ظلوم فانقلبت أوضاعهم وتبدلت طباعهم وشرهت نفوسهم وعلت رؤوسهم فتناظروا وتفاخروا وطمعوا في أستاذهم وشمخت آنافهم عليه وأغاروا حتى على ما في يده واشتهر بالكرم والعطاء فقصده الراغبون وامتدحه الشعراء والغاوون وأخذ الشيء من غير حقه وأعطاه لغير مستحقه.

إلا أن شريكي الحكم فوجئا بحملةٍ عسكرية أرسلتها الأستانة لدحر شوكة المماليك بأمر من السلطان «عبد الحميد الأول» والحملة بقيادة حسن باشا الجزايرلي، فما كان منهم إلا أن قاوما هذه الحملة، غير أن حسن باشا انتصر عليهما، وحتى يكسبهما إلى جانبه أعطاهما حكم المنطقة الواقعة ما بين سوهاج حتى شلال أسوان.

غير أن المماليك حشدوا صفوفهم وهيأوا الفرصة لإبراهيم بك ومراد بك للعودة إلى القاهرة والسيطرة على البلاد مرة أخرى. وآل بعدها إلى مراد بك وإبراهيم بك منصب شيخ البلد، وكان شيخ البلد حينها هو الحاكم الفعلي والحقيقي لمصر، لتعود سطوة البلاد مرّة أخرى إلى المماليك.

وبين هذا وذاك كان الحال المصري لا يبشر بالخير، قطاع الطرق في كل مكان، الفقر المدقع، حوادث وجرائم، فلم يكن المماليك يهتمون



كثيرًا بأمور الرعيّة بل يهتمون بالتقرّب من أصحاب الأصوات المسموعة كالأزهر أو فئات التجار، أو العمل على السيطرة على مقاليد الحكم وتثبيته والخوف من المنافسة، متناسين الأخطار الدولية والداخلية التي قد تواجههم يومًا ما، وهكذا كان الحال لكل مواطن من قاع الشعب، لطبقة الحاكمة لا تهتم إلا بكل ما يخص أمورهم هم فقط، والطبقة الكادحة تتسوّل من أجل رغيف من الخبز أو حفنة من القمح، وهكذا كان.

توسّعت الفجوة بين المواطن المصري والأمير المملوكي أكثر فأكثر، بدأت باعتداء بعض أمراء المماليك على بعض فلاحي مدينة بلبيس الذين كرهوهم بدورهم، فصعّدوا المشكلة إلى الأزهر بقيادة عبد الله الشرقاوي زعيم الأزهريين وشيخ الأزهر وقتها.

غضب الشرقاوي وتوجه إلى الأزهر، وجمع المشايخ، وأغلقوا أبواب الجامع، وأمروا الناس بترك الأسواق والمتاجر، واحتشدت الجموع الغاضبة من الشعب، فأرسل إبراهيم بك شيخ البلد لهم أيوب بك الدفتردار، فسألهم عن أمرهم، فقالوا: نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات أي (الضرائب).

وخشي زعيم الأمراء مغبة الثورة فأرسل إلى علماء الأزهر يبرئ نفسه من تبعة الظلم، ويلقيها على كاهل شريكه مراد بك، وأرسل في الوقت نفسه إلى مراد يحذره عاقبة الثورة، فاستسلم مراد بك ورد ما اغتصبه من أموال، وأرضى نفوس المظلومين. لكن العلماء طالبوا بوضع نظام يمنع الظلم ويرد العدوان.

واجتمع الأمراء مع العلماء، وكان من بينهم الشيخ السادات وعمر مكرم والشيخ الشرقاوي والشيخ البكري والشيخ الأمير.

وأعلن الظالمون أنهم تابوا والتزموا بما اشترطه عليهم العلماء.



وأعلنوا أنهم سيبطلون المظالم والضرائب والكف عن سلب أموال الناس والالتزام بإرسال صرة مال أوقاف الحرمين الشريفين والعوائد المقررة إليهم وكانوا ينهبونها، وكان قاضي القضاة حاضرًا، فكتب على الأمراء وثيقة أمضاها الوالي العثماني وإبراهيم بك ومراد بك شيخا البلد.

بين هذا وذاك، تنافس الأميران كل على بسط سيطرته على فئة من الفئات كي تتساهل بعدها مقاليد الحكم تحت أيًّا منهم.

في تلك الأثناء، كان التنافس يحتد بينهم، إبراهيم بك من جهة ومراد بك من جهة أخرى، هذا يحاول وذلك يقاوم، يغيرون على بعضهم ويضمرون المكائد، في تلك الأثناء جاءهم القدر عن طريق البحر المتوسط، على شكل حملة فرنسية يقودها نابليون بونابرت لاحتلال مصر.

عندما انهزم مراد بك في موقعة إمبابة، هرب إلى الصعيد، فأرسل نابليون بونابرت حملة إلى الصعيد لمطاردة مراد وإخضاع الصعيد بقيادة الجنرال ديزيه، ثم أرسل إليه أيضًا قنصل النمسا في الإسكندرية شارل روزنتي برسالةٍ مضمونها أن يقدم مراد الطاعة إلى الفرنسيين، مقابل ذلك يجعله الفرنسيون حاكمًا على الصعيد. رفض مراد هذا العرض بحسم، وقال لـ «روزنتي»: «ارجع وقل لـ «نابليون» أن يجمع عساكره ويرجع إلى الإسكندرية ويأخذ منا مصروف عسكره، ويحمي نفسه وجنوده منا».

كان مستغربًا أن يتحدث مراد بك بهذه الثقة الزائدة التي تعكس استخفافًا بالغًا بالخصم الذي هزم مراد شر هزيمةٍ في إمبابة وجعله يفر بجيشه إلى الصعيد، وبطبيعة الحال كان الرد المستفز بداية لحملة مطاردة طويلة بين ديزيه ومراد، انطلق مراد يجوب الصعيد وخلفه



ديزيه يتبعه، كان مراد يسبق ديزيه بيوم أو ليلة، ويبدو أن مراد كان متيقنًا من أنه لن يتمكن من مواجهة قوات الفرنسيين، خاصة أنهم يملكون المدافع ويفتقدها هو، لذا اتبع معهم خطة الفرار، والتي تؤدي إلى إنهاك خصمه في مطاردته عبر صحراء شاسعة وبلدان لا يعرف ديزيه عنها شيئًا، وفي المطاردة يفقد الفرنسيون الزاد والمئونة والسلاح أيضًا.

حققت هذه الخطة بعض أهدافها، لكن الذي تحمل ثمن وتكلفة تلك الخطة هم المصريون أبناء الصعيد، فلم يكن مراد ينزل بمدينة حتى يلزم أهلها بدفع «الميري»أي الضرائب التي كان يحصلها من الأهالي بعنف، ولا يهم إن كان الأهالي قد دفعوا الضريبة نفسها من قبل للدولة، ثم ما يكاد يتركها، حتى يتبعه ديزيه لينهب هو الآخر، فقد كان بحاجة إلى المال والطعام، فكان جنوده يأخذون الحبوب التي لدى الفلاحين ويذبحون حيواناتهم وطيورهم كطعام لهم، ثم يخلعون أسقف البيوت وأبوابها ونوافذها للتدفئة بها في ليل الشتاء، ويفرضون الضرائب الباهظة من جديد على الأهالي.

لم يكن مراد معتادًا على هذا النوع من المعيشة، بعيدًا عن قصوره وجواريه، وحياة الرفاهية التي يعيشها، فبدأت المراسلات بين كليبر ومراد بك، وانتهت باجتماعهما في الفيوم حيث اتفقا على أن يحكم مراد بك الصعيد باسم الجمهورية الفرنسية، وتعهد كليبر بحمايته إذا تعرض لهجوم أعدائه عليه، وتعهد مراد بك من جانبه بتقديم النجدة اللازمة لمعاونة القوات الفرنسية إذا تعرضت لهجوم عدائي أيًا كان نوعه، وأن يمنع أي قوات أو مقاتلين من أن يأتوا إلى القاهرة من الصعيد لمحاربة الفرنسيين، وأن يدفع مراد لفرنسا الخراج الذي كان يدفعه من قبل للدولة العثمانية، ثم ينتفع هو بدخل هذه الأقاليم.



وكانت قمة خيانة مراد بك بحق أثناء ثورة القاهرة الثانية، حيث شارك في عمليات القتال ضد المصريين بنفسه، ومنع عن القاهرة الإمدادات الغذائية التي كانت ترد إليها من الصعيد ومن الجيزة، فيُذكر أنه قد صادر شحنة من الأغذية والخراف تقدر بأربعة آلاف رأس كانت آتية من الصعيد لنجدة أهل القاهرة، وقدمها هديةً إلى كليبر والجيش الفرنسي، وكادت القاهرة تسقط في مجاعةٍ حقيقية في تلك الاثناء، ودل هذا على ولاء مراد بك إلى السلطة والمال في المقام الأول ولو على حساب أبناء بلده أنفسهم.

لم يكتفِ مراد بذلك، بل سارع أيضًا بإرسال الهدايا والإمدادات إلى جيش كليبر الذي يحاصر القاهرة، وقدم للفرنسيين المؤن والذخائر، وسلمهم العثمانيين اللاجئين إليه، وسعى إلى سحب المماليك الشرفاء الذين يقاتلون الفرنسيين داخل القاهرة إلى جواره لينضموا إليه في معاهدته وينهي بذلك ثورة القاهرة. ولما فشل في ذلك، كان هو الذي أسدى كليبر النصح بأن يحرق القاهرة على من فيها، وهو الذي أمد الفرنسيين بالبارود والمواد الحارقة التي استخدمت بالفعل في تدمير أحياء القاهرة، وكان مراد قد اشترى هذا البارود من قبل بأموال المصريين التي جمعها منهم للدفاع عن مصر ضد أي خطرٍ يمكن أن تتعرض له.

وبالفعل أشعل الجنود الفرنسيون الحرائق في البيوت والمتاجر والوكالات، فاندلعت النيران في حي بولاق بؤرة الثورة وقتها، وسقطت البيوت على من فيها، وتناثرت جثث القتلى، واستمر الضرب بالمدافع حتى دمر الحي بأكمله. ثم تتابع هجوم الفرنسيين على سائر أحياء القاهرة، حيًا وراء حي وزقاق وراء زقاق، واستمرت هذه الأهوال ثمانية أيام جرت في أثنائها الدماء أنهارًا في الشوارع،



وأصبحت أحياء القاهرة خرابًا.

ولولا انضمام مراد بك إلى كليبر لما انتهت ثورة القاهرة الثانية بهذه الهزيمة الساحقة للمصريين وتدمير القاهرة.

انطلق مراد بعد ذلك إلى الصعيد، واستقر في جرجا، وكانت رسائل قادة الحملة إلى مينو تؤكد إخلاص مراد وولاءه الشديد للفرنسيين.

ومن مكانه في الصعيد، أخذ مراد بك يتابع الموقف في القاهرة والإسكندرية بدقة شديدة، وبدأ يرى بعينيه نهاية الحملة، واقتنع بضعف الفرنسيين أمام الإنجليز.

ولأنه لا يستطيع أن يعيش بلا سلطة وأموال، فقد اتصل مراد بالإنجليز، ونجحت مفاوضاته معهم بالفعل، وأعلن الإنجليز أنهم سيصفحون عن كل ما ارتكبه مراد إذا ما انضم إلى الإنجليز في المعركة الأخيرة التي كان يجري التحضير لها لإنهاء وجود الحملة في مصر.

وهكذا أبدى مراد استعداده التام للانضمام إلى الإنجليز ومحاربة الفرنسيين، وبدا أن مراد بك يغير انتماءه سريعًا جدًا بلا أي مبادئ، وكانت انتماءات مراد كلها لمصلحته ولم تقترب قط من مصلحة المصريين.

وفي ذروة سعادته بأنه نجح في أن يلعب على الجانبين الفرنسي والإنجليزي بنجاح، كان المرض القاتل ينتظره، فقبل نشوب المعركة الأخيرة بين الإنجليز والفرنسيين، أصاب الطاعون مراد، ومات به في ٢٢ أبريل عام ١٨٠١م ودفن في سوهاج.

أما عن إبراهيم بك، فقد هرب إبراهيم بك بعد هزيمة المماليك في معركة إمبابة إلى سوريا، ثم عاد إلى مصر مع جيش عثماني ودخل القاهرة ١٨٠٠م، ولما انتصر الفرنسيون على ثورة القاهرة الأولى



هرب ثانية.

بعد جلاء الجيوش الفرنسية عن مصر عاد ثانية، وبعد مغامرات وهروب وكر وفر وكل إليه الوالي محمد علي منصب شيخ البلد، في أثناء مذبحة المماليك كان إبراهيم مع ولده في طرة، وفشلت محاولته في توحيد صفوف المماليك ضد محمد على، ورفض محاولة محمد على الصلح ١٨٠٩، فر مع أتباعه إلى دنقلة حيث بقي حتى مات ١٨١٧م وبعد وفاته نقلت زوجته رفاته إلى وكان قد أرسل إلى محمد علي قبيل وفاته طالبًا السماح له بالعودة إلى القاهرة ليموت فيها ولكن يبدو أن محمد علي لم يسمح وكان للموت الكلمة الأخيرة.

معركة الأهرام – موقعة إمبابة



لوحة «معركة الأهرام» أو إمبابة الأهرامات بريشة فرانسيز لويس جوزيف سنة ١٧٩٨م



ظروف العالم في الأعوام التالية قد تغيّرت كثيرًا، خارطة العالم تتغيّر باستمرار، ممالك تصعد وتهبط، دول تحتل دول أخرى، امبراطوريات صاعدة تبحث عن قطعة تفرض فيها سيطرتها الحربية والاقتصادية، وهكذا كان.

بعيدًا عن الشرق الأوسط هناك في أعماق أوروبا، بزغ نجم بريطانيا العظمى.

كانت السلطة التنفيذية في فرنسا ملكًا لحكومة الإدارة وكانت الحكومة تلجأ للجيش للوقوف أمام نادي اليعاقبة والأخطار الملكية الأخرى، مع الاعتماد بصورة رئيسية على نابليون الأول، الذي كان يعد قائدًا ناجحًا حينها، بعد الانتصار في الحملة الإيطالية.

كانت فكرة السيطرة على مصر وجعلها مستعمرة فرنسية تحت النقاش منذ قام البارون دو توت بمهمة سرية إلى بلاد الشام في ١٧٧٧م لفحص جدوى الحرب والسيطرة.

كان تقرير البارون إيجابيًا، لكن لم يتم اتخاذ أي خطوات من قبل فرنسا حينها، وأصبحت مصر محل نقاش بعد ذلك بين شارل تاليران ونابليون.

وفي العام ١٧٩٨م، قدم نابليون اقتراحًا إلى حكومة المديرين بالقيام بحملة للسيطرة على مصر، بهدف «الحفاظ على المصالح الفرنسية»، وتقليل قدرة بريطانيا على الوصول إلى الهند وإلحاق الضرر بتجارتها، وذلك بسبب موقع مصر الجيد بين خطوط التجارة. أراد بونابرت تأسيس مستعمرة فرنسية في مصر، سعيًا في نهاية المطاف للارتباط بحليف فرنسا السلطان تيبو في مملكة ميسور.

بما إن فرنسا لم تكن مجهزة لهجوم مباشر على بريطانيا العظمى، قررت حكومة المديرين التدخل بصورة غير مباشرة، وعمل ميناء



مزدوج يصل بين البحرين الأحمر والمتوسط كفكرة أوّلية لقناة السويس والتي سيتم تنفيذها بعدها.

في هذا الوقت، كانت مصر ولاية عثمانية منذ ١٥١٧م بعد قتل طومان باي الأخير، ولكنها لم تكن تحت السيطرة المباشرة للعثمانيين، حيث كان يحكمها المماليك، وكان بينهم نزاعات على السلطة.

في فرنسا، كانت «الموضة المصرية» رائجة، حيث شاع الاعتقاد بين المفكرين أن مصر هي مهد الثقافة الغربية، وكان تجار فرنسا في مصر يشتكون من معاملة المماليك لهم، كما كان نابليون يريد أن يسير على خطى الإسكندر الأكبر، أكد نابليون للحكومة الفرنسية أنه بمجرد السيطرة على مصر، سيقوم بالتحالف مع الأمراء الهنود والهجوم على بريطانيا العظمى في مستعمراتها وفقًا لتقرير قدّمه تاليران في الثالث عشر من فبراير ١٧٩٨م.

تحرّك جيش نابليون في البحر المتوسط تجاه الشرق، تحديدًا إلى مصر ليتم ما خططه نابليون لشهور، وبعدما جمع الكثير من الجنود والسفن قام بالتحرّك إلى مصر.

عندما وصل أسطول نابليون إلى مالطا طلب نابليون من فرسان مالطا السماح لأسطوله بدخول الميناء والحصول على الماء والطعام. رد فون هومبيش على هذا الطلب بأنه لن يسمح إلا بدخول سفينتين فرنسيتين في المرة الواحدة، بعد معرفة الرد، فكر نابليون في أن ذلك سيتطلب أسابيع حتى يصل الأسطول بأكمله، وتخوف من لحاق الأسطول البريطاني بقيادة نيلسون بهم، فأمر بغزو مالطا، وقد كان.

كان مينو أول من انطلق إلى مصر، وكان أول فرنسي يصل، هبط بونابرت وكليبر معًا وانضما إلى مينو ليلًا في مارابو، حيث تم رفع أول علم فرنسي في مصر، أبلغ بونابرت بأن الإسكندرية تعتزم



مقاومته وسارع إلى الحصول على قوة على الشاطئ، وفي الساعة الثانية صباحًا، انطلق في ثلاثة طوابير، ووصل على حين غرة أمام أسوار الإسكندرية وأمر بالاعتداء - فاستسلم المدافعون، لم يكن لدى المدينة وقت للاستسلام ووضع نفسها تحت تصرف الفرنسيين، ولكن على الرغم من أوامر بونابرت، اقتحم الجنود الفرنسيون المدينة.

في الأول من يوليو، قام نابليون، على متن سفينة «المشرق» في طريقه إلى مصر، بكتابة البيان التالي إلى سكان الإسكندرية المسلمين:

«لطالما أهان البكوات الذين يحكمون مصر الأمة الفرنسية وغطوا تجارهم بالافتراءات، لقد حانت ساعة عقابهم. لطالما استبد هذا الحشد من العبيد، الذي تم شراؤه في القوقاز وجورجيا، بأجمل جزء من العالم، لكن الله، الذي يعتمد عليه الجميع، قد قرر أن إمبراطوريتهم ستنتهي، يا شعب مصر، لقد أخبروكم بأنني جئت لتدمير دينكم، لكن لا تصدقوهم، أخبروهم أنني جئت لاستعادة حقوقكم ومعاقبة المغتصبين، وأنني أحترم الله ونبيه والقرآن أكثر من المماليك، وقولوا لهم أن جميع الناس متساوون أمام الله، الحكمة، المواهب، الفضائل هي الأشياء الوحيدة التي تجعل الإنسان يختلف عن الآخر، هل هناك أرض أكثر جمالًا؟ إنها ملك المماليك، إذا كانت مصر مزرعتهم، فعليهم أن يظهروا عقد الإيجار الذي أعطاهم الله له أيها القضاة، الشيوخ، الأئمة، وأعيان الأمة.

أطلب منكم أن تخبروا الناس أننا أصدقاء حقيقيون للمسلمين، ألم نكن نحن من دمروا فرسان مالطا؟ ألم نكن نحن من دمروا البابا الذي كان يقول أنه من الواجب الحرب على المسلمين؟ ألم نكن نحن في جميع الأوقات أصدقاء إلى الرب العظيم وأعداء لأعدائه؟.

حقا سعداء هم أولئك الذين سيكونون معنا، ستزدهر ثروتهم



ورتبهم. سعداء هم أولئك الذين سيكونون محايدين! سوف يتعرفون علينا بمرور الوقت، وينضمون إلى صفوفنا، لكن غير سعداء أبدًا، أولئك الذين سيسلحون أنفسهم للقتال من أجل المماليك والذين سيحاربوننا لا رجاء لهم، وسيهلكون.

لوحة معركة الأهرام تعبّر عن موقعة من أهم المعارك العسكرية التي قامت في تاريخ مصر خصوصًا أنها مرسومة من شاهد على المعركة والتي اختارها موضوعًا مما شاهده.

ولكن لابد أن نعرف أن هذه المعركة هي التي كانت النقطة الفاصلة ما بين مصيرين، اما تراجع الجيش الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت وقتها مصر كانت استمرت تحت حكم المماليك البايات واستعادة الأمجاد السابقة.

وأما الفوز ودخول فرنسا القاهرة والإعلان عن تواجدها في مصر.

المعركة كانت على حسب شهادة الجبرتي في الحادي والعشرين من يوليو لعام ١٧٩٨م، وفي أقوال أخرى هي يوم الثالث والعشرين من يوليو.

قامت المعركة في منطقة ما بين الهرم وإمبابة، في الغالب عند أول شارع الهرم الحالي، وامتدت من شارع الوحدة في إمبابة إلى المريوطية فيصل مرورًا بالجيزة والعمرانية والثلاثيني وعزبة الصعايدة والمحكمة، بالإضافة إلى بولاق ناهية وشارع عشرة والبحوث، كل هذه المناطق ضمن سلسلة من الأراضي الكثيرة التي دارت فيها الحرب.

كانت الحرب بين المماليك الذين كانوا يعيشون حرفيًا في العصور الوسطى بقيادة إبراهيم بك ومراد بك وستة آلاف أمير وعشرة آلاف من الفروسية وأربعة عشر سفينة، وبين نابليون بونابرت الذي كان

عدد جيشه خمسًا وعشرين ألفًا وكان جيش متقدمًا جدًا فنيًا وعسكريًا.

المماليك ومصر عمومًا في تلك الفترة كانوا يعيشون في القرون الوسطى حرفيًا، فروسية وسيوف ومدفعين أو ثلاثة يملؤها الصدأ، وميزتهم الوحيدة أنهم محترفو حرب شوارع لكن لا حرب منظمة، هذا لأنهم كجيش كانوا يستخدمون هذه الحرب ضد الثورات التي تقوم من المصريين والصراع على الكرسي أو من المماليك وبعضهم البعض، المملوكي في تلك الفترة لا يهمه غير هذا، أما بونابرت كان قد أتى بأحدث أسلحة وبنادق ومدافع هذا غير أن خطط بونابرت العسكرية تكتيكيًا واستراتيجيًا كانت أكثر من رائعة.

مراد بك حضّر جيشه، وأوقفهم صفوف رافعين سيوفهم مثل أيام الخوالي، والسفن موجودة على ضفاف النيل، وجيش إبراهيم بك يقف في بولاق لا يتحرك وفي كل الأحوال إبراهيم كان خائفًا من أن ينقلب مراد على الحكم وأن ينفرد به.

رأى نابليون كل هذا الكلام وعرف أن الجيش متخلف قديم الهيئة، فقام بوضع خطة أن يقوم بهجوم وهمي في المقدمة يلهي به جيش مراد بك وبعد ذلك يهجم على الأجنحة فيسرق مدافعهم ويتفرغ للقتل، وقد قال قبلها خطبة للجنود الذين شكّلوا مربعات ليستطيعوا أن يصطادوا الجيش كالأنعام: « أربعون قرنًا من الحضارة والتقدم خلف هذه الأهرامات» وأشار إلى الأهرامات المصرية.

حتى تدرك كم التخلف الذي أصاب المماليك والجيش والدولة في هذه الأيام وهذا بسبب انشغال المماليك بالصراع على الكرسي والتودد للدولة العثمانية فقط، وإهمالهم للأحوال الداخلية وانقطاعهم على مدى التطور الذي أصبح فيه جيوش العالم.

الجيش الذي كان مجرّد سيوف فقط قبل الهجوم، خرج من صفوفه



فارس من المماليك «ويقال مصري» وتقدم ناحية جيوش نابليون المتمركزة في صحراء القاهرة وتنتظر وهي على أهبة الاستعداد للقتال.

تقدم الفارس قبالة نابليون ورفع سيفه وقال بصوت جهوري: هل من مبارز؟ هل من مقاتل؟

طبعا هذا كان نداء يحدث قبل الحرب في الجاهلية وعصور ما قبل البارود، في أيام جيش الصحابة وما قبل الإسلام، كان يخرج فارس لينادي على الجيش المقاتل يطلب مبارزًا ويتبارزون وبعد ذلك الجيشان يقومان بالهجوم على بعض، وهو نوع من الحروب النفسية أو إثبات التفوق الجسدي.

وبعد ان قال ذلك، نظر نابليون له ونظر للمترجم وفهم ما يريده، ضحك نابليون وأشار بإصبعه، فضربه جندي بالرصاص من البندقية، فمات على الفور.

مراد بك الذي كان لا يعرف أي استراتيجيات في الحرب، قرر الهجوم بكل قوته على المقدمة.

وأخذ الفرسان خيولهم ورفعوا سيوفهم وصاحوا «الله أكبر وهيّا إلى الجهاد» وجروا في هجوم خاطف على مقدمة الجيش.

الجيش الفرنسي لم يتحرك من مكانه، ظل منتظرًا رافعًا بنادقه والمدافع في وجه المهاجمين ومنتظر اقترابهم، وعندما اقتربوا أمامهم بالضبط، بدأت المعركة الفعلية، وبدأ ضرب النار.

كانوا يصطادونهم مثل العصافير، والضرب كان كبيرًا جدًا لدرجة أن الجبرتي يقول إن من كثرة دخان البارود وغبار الأحصنة والمدافع، ارتفعت غمامة سوداء إلى السماء غطت الشمس لأيام، لدرجة أنك لو نظرت على كف يدك لم ترها.



الخسائر كانت بالآلاف، مات أغلب الذين حاربوا والباقي قفزوا في المياة محاولة منهم للهروب فغرقوا، وغرقت السفن وحرقت، وانتصر نابليون بعد معركة دامية استمرت يومًا كاملًا «يقال ثلاثة أيام» وهرب مراد بك وإبراهيم بك للصعيد والشام.

واستطاع نابليون أن يفرض سيطرته على الحرب، وقرر التقدم بعدها إلى القاهرة التي منها سيعلن بعد ذلك احتلاله لمصر ليحميهم من الإنجليز.

في رحلته للقاهرة، كانت مؤن الجيش انتهت، فالجيش كان يمر على كل قرية تقابله في طريقه، ويدخل يسرق كل خيرها من دجاج وبط وخراف وأرز، الجنود كانوا يتسلون بقتل أفراد القرى من الرجال واغتصاب النساء، كانت النساء تختبئ فوق أسطح البيوت وتصرخ أمام أي عسكري فرنسي تراه على صهوة حصانه وتلطم، والجيش يحرق الرجال الذين يقررون الوقوف أمامهم، أو القرية التي ترفض إعطاء الجيش الفرنسي مؤن بالغصب.

قرية مثل قرية نكلة في طريقه إلى القاهرة، وقفت أمامه وقررت ألا تعطي له مؤن ولو على جثثهم، وقررت أن تقاوم الاحتلال، وكانت النتيجة أن الجيش حرقها بالكامل، وبالرغم من كل شيء إلا أن القرية قررت ألا تستسلم، وكانت بطولة حقيقية قد ظهرت وقتها.

فكانت الخسائر المملوكية كبيرة، وأيضًا الخسائر البشرية من المصريين سكان القرى كانت أكبر، وانتهت معركة الأهرام بإعلان نابليون احتلاله لمصر كلها فعليًا.

مذبحة القلعة



لوحة تخيّلية لمذبحة القلعة

بعد خروج جيش نابليون من مصر العام ١٨٠١م رسميًا، وبعد مقاومة شعبية من المصريين وزعمائهم الشعبيين وفلول المماليك، وبعدما هزم نابليون في واترلو وأبو قير البحرية، تحررت مصر أخيرًا من سطوة الاحتلال الأوروبي لفترة من الزمن، وحين غادر آخر جندي فرنسي من الأراضي المصرية، أصيبت مصر بحالة من الفراغ السياسي، فالكرسي العثماني أصابه الوهن، والمماليك يلملمون جراحهم في استعداد لاستعادة الملك، والمصريين يكرهون الفريقين.

كان المصريون في تلك الفترة ينتظرون قرار السلطان العثماني بإرسال والي جديد ليحكم مصر، كانت مصر وقتها لها زعيمان هما عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ عبد الله الشرقاوي، وهؤلاء قرروا انتظار قرار السلطان العثماني سليم الثالث.

أما عن المماليك فقد كان الخلاف بينهم على أشدّه، منقسمون تحت



فريقين.

الفريق الأول هو محمد بك الألفي الذي كان من الموالين للإنجليز، وكان يعمل على اقناعهم بالبقاء في مصر ومعاونته على اعتلاء عرش مصر.

والفريق الثاني هو فريق إبراهيم بك الذي رأس فرق العثمانيين وقدم إلى مصر ليحاول تحريرها من الفرنسيين، حين رحلوا هم بقي هو وحاول استمالة السلطان العثماني ليمكّنه من عرش مصر، ولكن السلطان العثماني فضّل أن يكون الوالي عثماني وقتها، فاختار خورشيد باشا واليًا على مصر، ضاربًا آمال المماليك في الرجوع.

خورشيد باشا جورجي الأصل، أسلم وتدرج في المناصب القيادية في الجيش العثماني حتى أرسله السلطان العثماني إلى الإسكندرية ليكون حاكمًا على مصر، فلم يعترض المصريون على حكمه كونه مسلمًا ووجهًا جديدًا لربما كان صالحًا يرفق بهم.

ولكن التحول الذي أصاب خورشيد باشا في حكمه، وبوادر الظلم التي ظهرت عليه في الحكم آلت بين استكماله لفترة حكمه وبين المصريين.

حيث إنه أبعد المماليك جميعهم خارج العاصمة ليتقي شرّهم.

في ذلك الوقت، قدم إلى مصر قائدًا عسكريًا على رأس فرق الألبان والأرناؤوط وهو محمد علي، وكان كثير التودد إلى المصريين وعلماء الأزهر واستطاع أن يكسب ثقتهم فيه.

وحينما أرسل خورشيد باشا إلى السلطان العثماني ليمدّه بجنود تثبّت أقدامه على العرش، استقدم خورشيد قوات تسمّى الدولاة، وهؤلاء مارسوا البلطجة على العوام المصريين وسرقوهم وأقاموا فيهم الظلم والاغتصاب والقتل.



فقامت مصر وقتها بثورة عارمة وطالبوا خورشيد باشا بالرحيل، وحين رفض قاموا بعصيان مدني واقتحموا القلعة مما اضطر بالسلطان العثماني إلى سحب خورشيد باشا وتعيين من اختاره المصريون وقتها، محمد علي باشا.

صار محمد علي باشا حاكم مصر القادم عن طريق ثورة، بقيادة شعبوية مصرية خالصة، فكان بمثابة القائد الذي انتظره المصريون لأعوام ليخرجهم من الظلمات إلى النور، أو هكذا تصوروا.

حينما جلس محمد علي باشا على سدة الحكم، ظهر وجهه الحقيقي وقرر أن يثبّت أقدامه إلى الأبد، ولما في تثبيت الأقدام من تضحيات فقد قرر أن يتخلّص من كل من يريد أن يقاسمه الحكم أو كل من يشكّل خطر عليه.

فقام بنفي الزعماء الشعبيين أمثال عمر مكرم خارج القاهرة إلى الأبد وقاوم الثورات التي قامت في صعيد مصر بالحديد والنار، وقام بإقامة جيش مصري بقوانين صارمة وأجبر المصريين على التجنيد الإجباري.

أما عن المماليك، فبعد رحيل خورشيد باشا ظنوا أن الطريق مفتوح لهم للاستيلاء على العرش مجددا، وعادوا إلى القاهرة من جديد، وشكلوا خطرًا على محمد علي الذي أيقن أن خطر المماليك يهدد حياته الشخصية نفسها.

في العام ١٨١١م حاول محمد علي عقد الصلح مع المماليك لكي يتجنّب شرّهم، وقد كانوا موالين في ذلك الوقت للإنجليز وظهر هذا في حملة فريزر على مصر في العام ١٨٠٧م.

ولكن المماليك كانوا متقلبين كثيرًا، يتعاهدون معه ومن ثم ينقضون العهد، كان محمد علي يجتهد في محاولة الاتفاق معهم بعقد مفاوضات عدة بينه وبينهم انتهت إلى اتفاقات طالما نقضوها وكان



يهدف من اتفاقه معهم تأمين حكمه واستخدام فرسانهم الأقوياء في محاربة الوهابيين إذ كان يعاني من ضعف وقلة فرسانه وجرب محمد علي معهم العديد من الأساليب فقد حاربهم وسالمهم وأقطعهم الإقطاعيات ومساواته لهم بكبار قادته.

في نوفمبر من العام ١٨٠٩م وبعد هجوم محمد علي باشا على المماليك بالصعيد، خضع المماليك لشروط صلح يقضي بأن يدفعوا الميري وكل الإتاوات والقروض الاستثنائية وأن يغادروا الصعيد إلى الأبد.

لكنهم سرعان ما نقضوا هذا الصلح فأخذوا يماطلون في تنفيذه ويطلبون مهلة بعد أخرى حتى يسووا شؤونهم في الصعيد، وما لبث الباشا أن ارتاب فيهم إذ بلغه أن هناك اتصالات بينهم وبين دول أجنبية كفرنسا على سبيل المثال، وبين شاهين بك الألفي والإنجليز. وكان شاهين يطلب منهم إرسال جيش إلى مصر أو على الأقل أن يمدوه بأموال يستخدمها في تحريض الجند والناس ضد محمد علي لعله يصل إلى الحكم بدلًا من محمد علي نفسه.

لتلك الأسباب هدّد محمد علي باستئناف القتال إن لم ينفذوا الاتفاق القديم، فاضطروا إلى الحضور إلى الجيزة في مايو ١٨١٠م بلا نتيجة تذكر.

فأخذ إبراهيم بك يسول لشاهين بك الألفي نكث عهده مع الباشا بل وأغرى كبار رجال محمد علي بالخروج عليه، واستجاب له شاهين فانضم لهم شاهين بك بمماليكه مقابل حصوله على رئاسة بيت مراد بك وبذلك تأتى له رئاسة المماليك كلهم في النهاية، استطاع محمد علي في النهاية أن يدرك مدى خطر المماليك عليه حيث إنها المرّة الأولى التي يتحد المماليك جميعهم في وجه محمد علي، وقد شعر محمد علي ولأول مرة بالخطر.



ساءت العلاقات بين الطرفين وتأهبا للحرب إلا أن الباشا فضل الانتظار حتى يحل الفيضان فتغمر المياه الأراضى فيتعذر على المماليك الاستفادة من تفوقهم في الفرسان.

استغل الباشا الوقت المتبقى من مايو حتى حلول الفيضان في إرسال حملة لتطهير الصعيد من المماليك الذين تخلفوا فيه، وفى الوقت نفسه نشط رسله في الإيقاع بين المماليك المتجمعين ضده في الجيزة، ونجحوا في إقناع فريق منهم بقبول الصلح مع الباشا وتوجه إليه بعض المماليك الأمراء بمماليكهم مستأمنين، وتزايدت المؤامرة والكراهية بين الطرفين إلى أبعد الحدود.

وما إن ارتفعت مياه الفيضان حتى بدأت المعارك الحاسمة التي دارت عند الهوارة واللاهون في مديرية الفيوم في يوليه وأغسطس من العام ١٨١٠م.

وانتهت إلى هزيمة المماليك ومقتل الكثيرين منهم وأسر آخرين كما انضم كثيرون منهم إلى الباشا ومنهم زعيمهم الجديد المملوك شاهين بك الذي حضر للقاهرة مستأمنًا للمرة الثانية، فأكرمه الباشا، ووعده بإعادته إلى مناصبه السابقة.

إذ يبدو أن الباشا كان حتى ذلك الوقت لم يكن غير سياسته تجاه المماليك، وهى إغراء المماليك بطاعته والترحيب بمن يحضر منهم إليه معترفا بسلطانه وضمهم لقادته وإلحاق فرسانهم بجيشه الذي يزمع إرساله للحجاز، وفي الوقت نفسه كان يعتزم تعقب البكوات الآخرين المخالفين لتشريدهم والتنكيل بهم لإجبارهم على الاعتراف بسلطانه على مصر، لكن تآمر الفريقان معًا عليه في نهاية المطاف جعله يغير سياسته ويعمل على القضاء عليهم جميعًا وهذا لسببين.

السبب الأول كان دفع الباب العالى له لمحاربة الوهابيين وتلويحه



له بتوريث باشوية مصر لأسرته مثل وجاقات الغرب مقابل هذه المساعدة.

أما السبب الثاني وقوف الباشا على تآمر المستأمنين في فبراير لعام ١٨١١ك على الفتك به وهو عائد في الصحراء إلى القاهرة من السويس حيث كان يشرف على إعداد السفن اللازمة لنقل جنوده إلى الحجاز، وقد أفسد الباشا هذه المؤامرة بالعودة سريعًا إلى القاهرة قبل الموعد المتوقع لكن هذه المؤامرة يبدو أنها جعلته يغير سياسته تجاه المماليك ويقرر الفتك بهم قبل أن يفتكوا به.

كانت العملية سرّية بحتة لا يعرف تفاصيلها إلا أربعة وهو محمد علي ولاظوغلي وصالح قوش وطاهر باشا قائد الألبان، وكان صاحب الاقتراع بقيامه بتلك المذبحة هو وزير ماليته لاظوغلي باشا.

في الأول من مارس لعام ١٨١١م جاءت لمحمد علي باشا دعوة من الباب العالي لإرسال حملة للقضاء على حركة الوهابيين في نجد، فدعا محمد علي زعماء المماليك إلى القلعة بحجة التشاور معهم وتكريم الجيش الذاهب للحملة وتكريم ابنه طوسون باشا والاحتفال بذهابه على رأس الحملة، واستعد محمد علي للحفل وجاء زعماء المماليك بكامل زينتهم يركبون على أحصنتهم، بعد أن انتهى الحفل الفاخر دعاهم محمد علي لكي يسيروا في موكب الجيش الخارج للحرب.

تقدم موكب المماليك جيش كبير من الأحصنة التي يركبها جيش محمد علي باشا بقيادة ابنه (إبراهيم بك)، ثم طلب محمد علي من المماليك أن يسيروا في صفوف الجيش لكي يكونوا في مقدمة مودعيه.

وفي هذه اللحظة خرج الجيش من باب القلعة المسمى بباب العزب، وأغلقت الأبواب، أما الحراس الذين كانوا يعطون ظهورهم للمماليك استداروا لهم، وانطلقت رصاصة في السماء، ولم ينتبه



المماليك إلا بعد فوات الأوان! فقد كانت هذه هي الإشارة لبدء مذبحة لن ينساها التاريخ يومًا، وانهال الرصاص من كل صوب وحدب على المماليك.

أخذت المفاجأة المماليك وساد بينهم الهرج والفوضى، وحاولوا الفرار، ولكن بنادق الجنود كانت تحصدهم في كل مكان، ثم انهالت الطلقات مدوية من أمامهم ومن خلفهم ومن فوقهم تحصد أرواحهم جميعًا بلا رحمة، حتى قيل إن عدد القتلى في هذه الواقعة قارب الخمسمئة ومن نجا منهم من الرصاص فقد ذُبِح بوحشية، فقد سقط المماليك صرعى مضرجين في دمائهم، حتى امتلأ فناء القلعة بالجثث، ولم ينج من هذه المجزرة سوى أمين بك الذي هرب بحصانه من فوق أسوار القلعة في اللحظة المناسبة.

وصل خبر تلك المذبحة إلى الجماهير المحتشدة في الشوارع لمشاهدة الموكب فسرى الذعر بينهم، وتفرق الناس، وأقفلت الدكاكين والأسواق، وهرع الجميع إلى بيوتهم، وخلت الشوارع والطرقات من المارة، وسرعان ما انتشرت جماعات من الجنود الأرناؤوط في أنحاء القاهرة يفتكون بكل من يلقونه من المماليك وأتباعهم، ويقتحمون بيوتهم فينهبون ما تصل إليه أيديهم، وتجاوزوا بالقتل والنهب إلى البيوت المجاورة

وكثر القتل، واستمر النهب، وسادت الفوضى ثلاثة أيام، قُتل خلالها نحو ألف من المماليك ونُهب خمسمائة بيت، ولم يتوقف هذا إلا بعد أن نزل محمد علي إلى شوارع المدينة، وتمكن من السيطرة على جنوده وأعاد الانضباط، وسيطر محمد علي أخيرًا على مقاليد الحكم، ويظل الناجي الوحيد من المذبحة هو المملوك الشارد «أمين بك».



المملوك الشارد: آخر المماليك

ماذا يعني الأكثر حظًا؟؟

أمين بك هو من المماليك الأرناؤوط، مملوك من المماليك البايات أو أحفاد أمراء المماليك التي عفت عنهم الدولة العثمانية بعد دخول مصر وإعدام طومان باي، في هذه الفترة الدولة العثمانية قررت أنها لن تقتل كل المماليك في مصر لأنها تحتاج لهم، مصر كبيرة جدًا وإدارتها صعبة للغاية، والعثمانيين لا يهمهم سوى فرض السيطرة ودفع الجباية، ولذلك عفت عن صغار المماليك ليتولّوا شئون الأداة ويؤمنون دفع الجباية وإرسالها إلى الأستانة.

أمين بك واحد من نسلهم، تربّى في مصر مثله كمثل أي مملوكي في الدولة، وعاش فترة الصراعات الداخلية والتنافس على الحكم والنفوذ في مصر وكان لا يزال صغيرًا وقتها.

عندما كان شاب في مقتبل العمر، دخل نابليون مصر عام ١٧٩٨م، ولأن المماليك هم الذين حاولوا التصدي له في معركة الأهرام أو حرب إمبابة المشهورة، عندما انتصر نابليون على المماليك قرر أن يطاردهم ليقتلهم، فكان أمين بك الشاب واحد من ضمن هؤلاء المماليك، فقرر أن يهرب في السر على الشام وتحديدًا لبنان، واستطاع فعلًا بعكس كل الذين قتلوا أن يهرب على هناك، وظل هناك فترة متخفي.

- الحظ الأول: النجاة من نابليون

هناك، تعرّف على حب حياته، أميرة لبنانية اسمها «سلمى»



وأحبوا بعضهم البعض.

سلمى كانت تحت وصاية حاكم لبنان الأمير بشير، وكان من المفترض أنها مخطوبة من ابن عمها الأمير هو أيضًا، والتي كانت لا تحبه، فلما وصلت الأخبار لأمين بك أن نابليون خرج من مصر، اتفق مع الأميرة سلمى أن يهربوا مع بعض لمصر باسم جديد وهوية جديدة، وفعلًا هربوا، وعرف الأمير بشير الحكاية وأهدر دمهم، وطاردوهم في الصحراء لكنهم كانوا هربوا بالفعل.

رجعوا على مصر وتزوجوا، وغيرت سلمى اسمها لجميلة وعاشوا مع بعض بعيدًا عن الأعين، خوفًا من انتقام الأمير لو عرف مكانهم في مصر

- الحظ الثاني: النجاة من إهدار الدم

عاشوا مع بعض عدة سنوات، وأنجب منها ولدًا وكانت حاملًا في الثاني، وفي يوم، وبعد صعود محمد علي لسدة الحكم، أقام محمد علي احتفال كبير دعى له كل أمراء المماليك الربعمائة بمناسبة خروج ابنه طوسون للحرب ضد الوهابيين، وكان الاحتفال في القلعة، ووصل لكل مملوك دعوة خاصة جدًا وفخمة جدًا، ولأن محمد على كان يقربهم له وعمل معهم صلح فقرر الجميع حضور الاحتفال بالملابس الرسمية

أمين بك كان من المدعوين لهذه الحفلة، وارتدى ملابس فخمة وقبل أن ينزل، زوجته أخبرته بقبضة قلبها قالت له إنها حلمت حلمًا سيئًا، أمين بك جلس جوارها يقنعها أن كل هذه أفكار الشيطان ولا يجب أن تصدقها وتستعيذ بالله، لكنها صممت على موقفها، وظلوا يتناقشون إلى أن اكتشف أنه تأخر على الحفل، فودعها ومشى.

عندما وصل القلعة، وهو يدخل من باب العزب فوق في الجهة الشرقية، وجد خروج موكب المماليك من ناحيته وهذا معناه أنهم



انتهوا من الاحتفال وسيكملونه بالخارج، فقرر أمين بك أن ينتظرهم مكانه لينضم لهم ويكمل معهم.

وعندما اقتربوا من الباب، سمع صوت طلقة البداية، وبعد ذلك رأى الباب يغلق أمامه، وسمع بعدها صراخ وضرب النار والفرقعة، ففهم سريعًا أنه كمين، خصوصًا عندما رأى الحرس يجرون ناحيته، وبسرعة استدار بالحصان ناحية السور وجري بأقصى سرعته، وربط على عين الحصان قطعة من القماش، حتى لا يرى إلى أين سيقفز حتى لا يخاف، وقفز من فوق السور العالي بالحصان، وقبل سقوط الحصان على الأرض، وقف فوقه وقفز بعيدًا عنه ليخفف شدة السقوط، ثم سقط وفقد الوعي.

- الحظ الثالث: النجاة من مذبحة المماليك

عندما فقد الوعي، لمحته قوافل العربان قطاع الطرق يسقط ويغشى عليه، فاقتربوا منه ليسرقوه لكن جماعة من العربان الآخرين تصدوا له عندما وجدوه مصابًا، وأخذوه معهم ليعالجوه على سبيل الخير.

في هذا الوقت محمد علي علم أن هناك مملوكًا واحدًا قد هرب، فاسماه المملوك الشارد، وبعد ذلك أمر جنوده بالبحث عنه في كل مكان وأن يقتلوه، لكنه كان قد أفيق وهرب من ضواحي القاهرة لبولاق ومن ثم إلى الصحراء وهناك احتمى مع قبيلة من قبائل العربان، فبحث عنه الجنود ولم يجدوا له أثرًا.

- الحظ الرابع: النجاة من جنود الألبان

في هذا الوقت كان محمد علي باشا قد أهدر دم كل المماليك وأسرهم، وأباح للجنود زوجات وبنات المماليك يفعلون فيهن ما يشاؤون، فوصل الخبر لسلمى زوجة أمين بك التي لم تجد وقتًا في



الصراخ على زوجها، وظنت أنه قتل، ولملمت حاجياتها على عجل وهربت مع الخادم سعيد بلا وجهة، أي بلدة خارج مصر تكفي.

أخذوا طريق الصحراء الطويل في مشقة وتعب وهم لا يعرفون إلى أين يذهبون، وفي الطريق ولدت سلمى ابنها الثاني وأسمته غريب، وابنها الأول «سليم» قد فقدته في الطريق في الصحراء ولم تجد له أثرًا، لم تجد سلمى مفرًا من العودة إلى لبنان، ولجأت إلى لأمير بشير بهويتها المستعارة «جميلة» وقالت له إنها من صيدا من خوفها على ابنها الرضيع، والأمير بشير الذي كان يشبّه عليها قبل مساعدتها واستقبلها تحت حمايته.

- الحظ الخامس: نجاة زوجته وابنه

عاش أمين بك في الصحراء مع البدو تحت اسم «سليمان» بعدما شاب شعره وغير من شكله ونسي اسمه القديم تمامًا، لكنه كان يتعذب من ألم الفراق ويتمنى أن يعود إلى القاهرة ليطمئن على زوجته وابنه ويدرك على الاقل مصيرهم وما لاقوه، وهذا كان من المستحيلات وقتها.

وفي يوم من الأيام، بالصدفة لمح شاب صغير يسير وحوله قطّاع الطريق في الصحراء يريدون سرقته وبعدها يقتلونه، فتدخل أمين بك لمساعدته بدون أن يعرفه، وأنقذ حياته من مصير مجهول وجلس معه إلى أن يسألوا عنه أهله، وعندما وصل أهله أخذهم لابنهم، فكان أبا هذا الولد بالصدفة هو الأمير بشير نفسه.

ولما أراد أن يشكره فهم أن لهجته مصرية وليست بدوية، وأصر أن يعرف قصته الحقيقية وسر وجوده في الصحراء، فحكى له أمين بك كل شيء من أول هروبه مع سلمى حتى هذه اللحظة، وأمّنه على السر وطلب منه ألا يتفوه لأحد ببنت شفّة، ولما عرف بشير القصة كلها عفى عنه وتوسط له عند محمد علي حتى يعود للبحث على أهله،



ووافق محمد علي ورجع أمين بك القاهرة للبحث عنهم.

- الحظ السادس: الحصول على عفو مستحيل

الأمير بشير لم يربط بين قصة جميلة التي في قصره، وقصة سلمى الهاربة، فكان مشوار أمين بك طويلًا لأنه يبحث في مصر كلها ولم يجدها، وحزن جدًا على نفسه، وقرر أن الحياة لا قيمة لها، فانضم لقوات إسماعيل بن السلطان التي كانت ذاهبة للحرب في السودان.

لكن ولأن القصة كانت غريبة فعلًا، عندما عاد الأمير بشير للبنان، حكى قصة سليمان أمام سلمى غصب عنه لأنه لم يستطع أن يخبئ أكثر من ذلك، بحسن نية لأنه لم يكن قد ربط بين القصتين، لكنها سمعت أن زوجها أبو ابنها على قيد الحياة وأغمى عليها مباشرةً، وهنا ربط بشير بين القصتين، ولما فاقت، أعطاها الأمان لتحكي الحقيقة، وحكت له أنها ليست جميلة وأنها سلمى التي هربت منهم وقالت له على كل شيء.

فكر بشير، وقرر العفو عنهما هما الاثنان، وأرسل للجيش في السودان أن يبلغ أمين بك أن يعود للبنان حالًا، وفعلًا رجع ووجد زوجته وابنه غريب، وغريب عرف لأول مرة أنه له أب على قيد الحياة ونجا من مذبحة المماليك

- الحظ السابع: ابنه عرف كل شيء ورآه أخيرًا

عاش أمين وسلمى وابنه غريب في لبنان سنين طويلة، وعمل هناك في التجارة وماتت سلمى أو طلقها، وجاءت له ألأخبار على كبر «كان تجاوز الـ٦٠» أن محمد علي انعزل عن الحكم، وأن إبراهيم باشا ابنه أصبح حاكمًا، فقرر أن يترك لبنان خصوصًا بعدما غريب كبر أصبح معتمدًا على نفسه، وعاد القاهرة، واستسمح إبراهيم باشا التي كانت بينهما صداقة قديمة ألا يعود للعيش في مصر، ووافق



إبراهيم باشا.

واشتغل أمين بك الألفي في التجارة وكان عمره وقتها ٦٤ عامًا، ولأنه كان ماهرًا جدًا نجحت تجارته أصبح معه المال مرة أخرى، وتزوج مصرية وأنجب منها أربعة، مراد ومحمد وأحمد وأمينة، وظل يعيش في القاهرة حتى سنة ١٨٥٩م، عندما أصبح كهلًا، بعدما نجا من كل هذا ليبقى المملوك الأخير الأكثر حظًا بين أقربائه المتوفين.

تمت

المصادر

مصطفى السيوطي الرحيباني، مطالب أولي النهى.

أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري.

أبو عثمان بن بحر الجاحظ، الحيوان.

أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، لطائف المعارف

قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك.

النجوم الزاهرة.

عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، مقدمة ابن خلدون.

أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر.

محمد بن احمد بن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور.



زكريا بن محمد بن محمد القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد.

تقي الدين احمد بن علي المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.

السيوطي، حسن المحاضرة.

أبو الفضل تقي الدين محمد بن فهد المكي، لحظ الألحاظ ذيل طبقات الحفاظ.

أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، البداية والنهاية.

صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات.

عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب.

السخاوي، الضوء اللامع.

أنطوان خليل ضومط، الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري.

علي بن داؤد الجوهري الصيرفي، أنباء الهصر بأبناء العصر.

محمد بن شاكر الكتبي، عيون التواريخ.

قاسم، النيل والمجتمع المصري.

القلقشندي.

ابن الصيرفي.

الطبقات التي تكون منها المجتمع المصري في عصر المماليك - د. جمال بن فرحان الريمي.

المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، د/ سعيد عاشور.

شمس الدين محمد بن عثمان بن أبي قاضي الديار المصرية،

حسن المحاضرة، ٤٦٨.

رحلة ابن بطوطة، المطبعة الأزهرية بمصر.

- ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

شفيق مهدى: مماليك مصر والشام، الدار العربية للموسوعات.

ابن الوكيل، يوسف الملواني: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، دار الافاق العربية

محمد زيد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية.

ابن طولون الصالحى، شمس الدين: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، دار الكتب العلمية

ابن اجا، محمد محمود الحلبي: العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك، دار الفكر

ابن طولون الصالحي: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، دار الكتب العلمية

اقتباس: وصف المؤرخ الصليبي «ماثيو باريس» (Matthew Paris) (توفي ١٢٥٨) الهزيمة قائلًا: كل الجيش المسيحي تمزق إربًا في مصر، وا أسفاه، كان يتكون من نبلاء فرنسا، وفرسان الداوية والاسبتارية وتيوتون القديسة ماري وفرسان القديس لازاروس وفرسان الهيكل.

Unveiling the Harem :Elite Women and the Paradox of Seclusion in Eighteenth Century Cole ‹Juan .(٢٠٠٧) Napoleon‹s Egypt :Invading the Middle East .Palgrave Macmillan.



فهرس الموضوعات

